قبل نهاية العالم
أميمة رشوان
سنابل للكتاب
الخان

مجموعة قصصية

قبل نهاية العالم

أميمة رشوان

مؤسسة الخان للنشر

الناشر: الخان للنشر، سنابل للنشر
مؤسسة الخان للتنمية الثقافية
جمهورية مصر العربية (القاهرة)
توزيع: شركة سنابل للنشر والتوزيع

للتواصل

01008781043

01091518150

ALKHANPUB@GMAIL.COM

مدير النشر: محمد مملوك
إخراج فني: وحدة الجرافيك بالمؤسسة
رسوم الغلاف محمد جمال أحمد
تدقيق لغوي: وحدة المراجعة بالمؤسسة
آيات عرابي
علاقات عامة: فاطمة أحمد

اسم الكتاب:
قبل نهاية العالم
اسم الكاتبة:
أميمة رشوان
نوع الكتاب قصص قصيرة
لغة الكتاب الأصلية: العربية
عدد صفحات الكتاب: 96 ص

رقم الإيداع بدار الكتب

الترقيم الدولي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

تم كتابة ومراجعة المجموعة القصصية داخل "ورشة الخان للكتابة الإبداعية" تحت إشراف : الشريف منجود

القصص

ومن شر حاسد	7
وجبة الغداء	11
نرجسية	15
ليلى	17
قبل نهاية العالم	19
سيدة القطار	23
ساندوتش	27
رباب	29
جرس المنبه	35
الصديق	39
بلا أمل	43
الوحدة	47
الجارة العجوز	49
الجزيرة	51
الانتقام اللذيذ	55
أبواب السماء	59
ابنة القمر	61
جناحان	65
الحصاد المر	69
مطاردة	73
الغريب	75
البحث عن السعادة	77
القرار الأخير	79

بيت على جانب الطريق 81
متعة فريدة 83
الحذاء الآثم 87
السيد المدير 91
سائق التاكسي 95

إهداء

إلى روح أبي؛ الشيخ عبد العزيز رشوان، أول مَن علّمني كيف أمسك بالقلم والذي تعلمت منه حب القراءة.

إلى روح أمي التي رحلت وأنا ابنة عشر سنوات.

أفتقد وجودكما كلما خطوت خطوة جديدة في مشواري.

إلى عميد العائلة عمي اللواء أبو الوفا رشوان حين يعجز الكلام عن وصف فضلك وتقدير فعلك.

إلى زهرتْي عمري أبنائي عمرو وأحمد؛ أول الداعمين لي، أتمنى أن أترك لكما مسيرة تفخران بها دائما، محبتي الأبدية ودعائي لكما.

إلى زوجي موسى حسين؛ رفيق الدرب، دُمتَ لي السند في مشوار الحياة.

إلى أخي الأكبر عاصم رشوان و أخي المستشار أحمد رشوان؛ مَن آمنا بي ودعماني دائما، شكرا على كل ما قدمتما لي

إلى شقيقتي سناء، وأبناء أختي مريم ومحمد وشهاب .

أهدي إليكم عملي الأدبي الأول مع كل الحب.

إلى الصديق الدكتور الشريف منجود؛ مَن أضاء لي الطريق وتعلمت منه الكثير حتى خرجتْ هذه المجموعة القصصية إلى النور .

كل الشكر والتقدير.

أميمة

ومن شر حاسد

كان الجو عاصفا في الخارج؛ حيث تلونت السماء بلون أصفر وارتفعت أصوات حفيف وخشخشة أوراق الشجر التي تقاوم الريح التي لفحت أغصانها ،بينما الجميع يهرول للاختباء في المنازل حتى خلت الشوارع إلا منه؛ إنه مجدي الشاب العشريني الذي كان عائدا بعد أن أحضر الدواء لجده المريض .كان يسرع الخطى وهو يلملم ملابسه التي رفعتها الرياح لتصبح كالمظلة وكادت أن تطير به عاليا، ما إن وصل إلى المنزل حتى دلف إلى الداخل وأحكم إغلاق الباب الخشبي العتيق، ثم نظر بحسرة إلى سقف المنزل المهترئ الذي تسرب الغبار من عدة فتحات خلاله، وفزع عندما رأى فتحة قد أفرغت حمولتها من الأتربة فوق سرير جده المريض.

يعيش الشاب العشريني داخل هذا المنزل القديم مع جده الضرير الذي يتولى رعايته منذ وفاة جدته. وضع كيس الدواء بجوار (العجوز) الممدد على السرير وقد بلغ به المرض أشده منذ عدة أيام، انحنى مجدي على الجد وأزال التراب وربّت على كتفه:

- لقد أتيت يا جدي ولا بد أن تتناول بعض الطعام قبل الدواء .

حرّك الجد رأسه ورفع وجهه لأعلى، ورفع يده عاليا ليتحسس جسد حفيده وطلب منه أن يجلسه، ساعده مجدي وأجلسه على الفراش ثم أردف الجد السبعيني وقد خرجت الكلمات ثقيلة كخطوات عجوز لا تقوى على السير:

-أسفل هذا السرير يوجد صندوق صغير، ائتني به.

لاحت ابتسامة على فم الشاب وهو يحدث نفسه: «أخيرا سوف أعرف سر هذا الصندوق الذي يخفيه جدي ويحذرني دائما من الاقتراب منه». ثم انحنى وسحب الصندوق وحمله ووضعه أمام جده.

تحسسه الجد ثم دس يده في صدره أسفل الجلباب وأخرج خيطا مربوطا حول عنقه وفي نهايته يتدلى مفتاح صغير ثم قال:

-خذ هذا المفتاح وافتح الصندوق .

رد مجدي محتدا:

-تناول بعض الطعام والدواء أولا يا جدي .

نهره الجد وهو يقول:

-افعل ما آمرك به فليس لدي وقت .

فانصاع مجدي لأمره، وما إن فتح الصندوق حتى احتقن وجهه غيظا واعتلت ملامحه الدهشة وظل فاغرا فاه وهو ينظر في الصندوق الذي كان خاليا إلا من بعض الأوراق الصفراء القديمة، فذم شفتيه ولوى فمه وهو يتمتم: «وأنا اللي كنت فاكره مخبي فيه كنز!! .»

قطع عليه همهمته صوت جده يسأله إن كان قد أتم فتح الصندوق .

-نعم فتحته .

قلّب مجدي في الأوراق ثم قال:

-ما هذه الأوراق يا جدي؟

-هذه عقود بيتنا وأرضنا في قريتنا.

-أى قرية وأى بيت وأرض؟

-سوف أخبرك، فقد حان الوقت لكي تعرف الحكاية يا ولدي.

وبصوت واهن بدأ يحكي له أنه: منذ سنوات بعيدة كان يعيش في بلدته ،وكان يملك بيتا وبعض القراريط يزرعها ويعيش على محصولها مع زوجته وابنه، ولكن كان لديه صفة مذمومة نغصت عليه حياته؛ فقد كان يمتلك عينا حاسدة، كل ما تقع عليه عينه ويعجبه يصيبه الدمار، حتى اشتهر عنه هذا الأمر وذاع في البلدة كلها فابتعد عنه الناس، كان إذا نظر إلى جاموسة أحدهم لا تمر الليلة ويجدها ميتة، وإذا مر على أرض مزروعة لا يمر يومان ويكون المحصول قد فسد حتى أصبح الجميع يخشاه، وإذا مر بشارع يسارعون إلى منازلهم ويغلقون أبوابهم، نفروا منه واعتزلوه ولم يعد له مكان في مناسباتهم.

كنت أتعجب من تصرفاتهم وأنكر زعمهم وما ألصقوه بي من صفة الشؤم والحسد حتى كنت يوما أجلس أمام البيت، ورأيت رجلا قادما من بعيد لم أتبين ملامحه، ولكني رأيته ممشوق القوام يتهادى خلف جلبابه الأبيض اللامع فاستحسنت مظهره في نفسي وعندما اقترب أدركت أنه والدك، وفي الصباح كان ميتا في فراشه .

اجتاحني حزن عارم على ابني الوحيد وكنت كمن أصابته لوثة ولم أشعر بنفسي وأنا أنشب أظافري في عيني، ظللت شهورا في المستشفى، وعندما

حان وقت خروجي رفض أهل البلدة أن أعود فأتينا أنا وجدتك إلى هذه القرية البعيدة وعشنا في هذا المنزل البسيط في أطراف القرية، وكنت أنت ابن 9 شهور بعد أن تركتك لنا والدتكُ وتزوجت، والآن أشعر أن نهايتي قد اقتربت لذلك أخبرتك لكي تأخذ الأوراق وتعود إلى البلدة وتسترد بيتك وأرضك وتبدأ حياة جديدة.

لم يصدق الشاب ما يسمع ولولا الحفرتان السوداوان الفارغتان في وجه جده، ولولا الأوراق التي بين يديه لم يكن ليصدق، وَلظَنَّ أن جده يهذي، ولولا مرض جده لذهب من توه إلى القرية، لم يمر يومان وكان جده قد غادر الحياة، قضى ليلته الأولى وحيدا لم يغَمض له جفن ومع أول خيط من نورالصباح ذهب إلى القرية وسأل حتى دله الناس على المنزل، عندما وقف أمامه لم يصدق عينيه كانت سعادته طاغية وهو يحدث نفسه: «أخيرا سيكون لي بيت له سقف من الأسمنت يقيني برد الشتاء .»

وسرح بخياله وهو يتخيل حياته بعد الآن وظن أن أيام الشقاء قد ولّت ،وبينما هو كذلك إذا بشرارة تصدر عن عامود الكهرباء أمام المنزل فتسقط على بعض القش على السطح فتشتعل النيران وتحيل البيت إلى ركام وتحترق معه أحلام الحفيد، ليكون ميراثه الوحيد عينَيْ جده.

وجبة الغداء

في تلك الدار التي يلفها الصمت على أطراف قرية الصيادين كانت تجلس السيدة الخمسينية متكورة على نفسها تضم ساقيها النحيفتين إلى صدرها، واضعة رأسها بين راحتيها، وبينما هي هكذا تحرك الهواء الراكد الجاثم على جدران المنزل تحت حفيف جلباب زوجها العائد من السوق عندما اقترب منها زوجها بخطوات متثاقلة ووجه تجمدت ملامحه، وعيون منطفئة كمن بعثرت الرياح حصاد عمره.

وضع أمامها سلته المصنوعة من الخوص وانزوى ليجلس متقرفصا في سكون في الركن المقابل لها، بينما توغر صدره نيران الذكريات المتقدة، اعتاد على فعل ذلك في هذا اليوم من كل أسبوع منذ شهور، يأتي بالأسماك لتكون وجبة الغداء .

تبقَّ هكذا لساعات تنتظره، تقيدها الذكريات والهموم في مكانها لكن ما إن تراه يدب النشاط في أوصالها الخاملة، وتنفرج أخاديد وجنتيها ويكسو وجهها النور فهذه الوجبة المحببة لوحيدها فؤاد.

يتملكه العجب وهو ينظر إليها في صمت ليراها تتبدل وتضَّحَ امرأة أخرى، ملامح الوجه تتغير وترقّ، الجلد الذي يبدو في باقي الأيام كأنه منقوع في الماء لأسابيع يعود أملسَ بضًّا، وعظام وجنتيها البارزتين كخدي مومياء تكتسيان لحما وتطريان وترتسم عليهما ألوان زهرة حب حمراء

،يختفي وجع مفاصلها فتتحرك هنا وهناك بروح فتاة في ربيع العمر.

تحدث نفسها: «إن فؤاد يحب السمك المقلي المقرمش، ويحبه طواجن أيضا». فتمسك بالسمك تنظفه جيدا، وتصنع منه عدة أصناف، فتضع بعضه في البرام ثم توقد فرن الحطب وتدسه فيها، وتترك الباقي لتقليه، منذ أن كان صغيرا يعشق البحر وما يخرج منه، تتذكر عندما كان يختفي من أمامها ويطول غيابه فتبحث عنه في كل البلدة ليجدوه أخيرا نائما في إحدى المراكب القديمة على الشاطئ.

كان فؤاد شاباً بهيَّ الطلعة طيب القلب محبوبا من الجميع، هو الولد الوحيد بعد ثلاث بنات حملته في حنايا القلب قبل البطن، بعد أن حصل على شهادة الإعفاء من الجيش أراد أن يسافر مثل باقي شباب القرية الذين وقعوا تحت غواية الشاطئ الآخر، فحملوا أرواحهم وأحلامهم إليه يتغربون لبضع سنين ثم يعودون محملين بالخيرات.

عندما عزم على السفر باعت له سوارها الوحيد واستدانت الباقي .تحاملت بيديها على الأرض لكي تنهض واقتربت من الفرن، أزاحت الغطاء عن وجهها لتطمئن على الطواجن بداخلها، أخرجتها بعد أن تأكدت من نضجها ثم جهزت السمك المقلي.

دخل فؤاد عليها يوما وهو يطير فرحا منفرج الأسارير لا تجد قدماه مكانا لها على الأرض، حملها بين ذراعية ودار بها، أخبرها أنه اتفق مع أحد المراكب التي تحمل شباب القرية إلى الجانب الآخر، لا تدري لماذا شعرت

حينها بقبضة تعتصر قلبها، ولكنها تجاهلت الأمر عندما رأت الفرحة تتقافز من عينيه. في اليوم الموعود حمل حقيبته، وبعض المتاع القليل الذي يكفيه مدة بقائه على ظهر المركب في عرض البحر.

نظر إليها طويلا، يريد أن يطبع صورتها في نني العين، طوّقته بذراعيها ،ظل ساكنا في حضنها كأنه عاد طفلا صغيرا، أفلتته بصعوبة فقط عندما سمعت أصوات رفاقه يستعجلونه في الرحيل. ركبوا المركب وفي منتصف الرحلة كانت فورة أحلامهم أكبر من أن يحتملها مَن كان الغدر طبيعته؛ فأضح هادرا عتيا، ذابوا في لجته. أيام يبحثون عنهم، عاد مَن نجا منهم ،خرجت تتفحص الوجوه لم يكن فؤاد من بينهم، غابت عن الدنيا لأيام .

بعد أن وضعت الطعام على الطبلية أخذت من كل صنف بعضه، وضعته في سلتها وحملته وهي تجر ساقيها جرا حتى وصلت إلى الشاطئ، خاضت في مياهه ارتفع صوتها بالنداء على ابنها مرددة اسمه:

-فؤاااااد، يافؤاااااد، الغدااااء.

ثم أفرغت سلتها على سطح المياه وعادت أدراجها تجر أوجاع فؤادها وهي تتمتم: «يا بحر الهوى، أمانة ما فاتش عليك عايم؟ رد البحر قال: فات وكان ع الخشب نايم.»

غير مبالية بنظرات الصيادين الذين يهزون رؤوسهم، ويتوارون خلف نظراتهم التي تنعتها بالجنون.

نرجسية

حباها الله بجمال لافت دون باقي أخواتها، دللتها أمها دوما، تضخمت نرجسيتها حتى كادت أن تنفجر. اختصتها بكل ما هو جميل، ترتدي أغلى الملابس من أرقى الأماكن، أصبح لا هَمّ لها سوى أن تهتم بشكلها وهندامها، أهملت تعليمها فلم تُنْهِهِ، أصبحت تنظر للجميع نظرة تكبر وغرور، أضحيتُ صديقتها الوحيدة التي لا تستغني عنها في كل وقت وأى مكان، تسألني دوما وهي تتمايل في خيلاء وغرور:

-هل هناك من أجمل مني؟

في أحد الأيام وهي نائمة شب حريق كبير في غرفتها، أخرجوها في اللحظة الأخيرة، تركت الحادثة آثارها عليها، ساح الجلد وتبدلت الملامح ،عالجوها لشهور، ولكنها لم تشُفَ ولم تعد كما كانت، بعد عودتها إلى المنزل أبعدوني عنها، حتى لا أصارحها بحقيقة ما أصبحت عليه الآن.

ذات صباح بينما الجميع نيام بحثتْ عني حتى وجدتني حيث أخفوني عنها، ما إن طالعتْ وجهها من خلالي حتى قذفت بي وتناثرتُ على الأرض شظايا صغيرة.

ليلى

بجسد منهك، وملامح حزينة، ونظرات واهنة، تقف ليلى خارج غرفة الرعاية المركزة بإحدى المستشفيات وقد أسندت رأسها على زجاج الغرفة مصوّبة ناظريها على ذلك الممدد على السرير داخلها وقد حاوطته الأجهزة وغزت جسده الأسلاك وهو في غيبوبة غير واعٍ لما يدور من حوله، كسرت السكون من حولها بتنهيدة حزينة خرجت من قاع صدرها ، أغمضت عينيها وهي تقاوم سرب الذكريات الذي اقتحم عقلها، بعضها كان ضبابيًّا بالكاد تتذكر تفاصيله، مثل ذكريات ذلك اليوم الذي غابت عنه الشمس ،حينما أفاقت من نومها على صوت أمها تهمس لها وهي نائمة من بين دموعها التي سالت بكلمات لم تفهمها في حينها، فقد كانت في الرابعة من عمرها ،تتذكر جيدا أنها نهضت ورفعت لها ذراعيها لكي تحملها، ولكنها أفلتت يديها الصغيرتين، وأسرعت بالخروج من الغرفة وهي تحمل حقيبة ملابسها.

تلك اللحظة هي الحزن الكبير في حياة ليلى ، والخنجر الذي طعن كبرياء والدها في مقتل، ووأد مشاعر أبوته لها، فبعد ذلك اليوم لم يعد يطيق النظر إليها؛ لأنها تذكره بأمها التي طلبت الطلاق لتتزوج بآخر؛ فعاشت سنين عمرها وهو يحُمّلها هذا الوزر، وشهورا لا يراها، ولا يسأل عنها منذ تركها عند عمتها لترعاها، أتى بها إلى المنزل بعد أن تزوج بأخرى، كانت تقتلها قسوته التي زادت بعد أن أنجب، تتعجب من نهر الحب وفيض المشاعر الذي

يغرق به أولاده بينما هي تتوق إلى لمسة حانية منه أو نظرة حب من أب لابنته مثل تلك التي يوزعها على إخوتها كلما لمحهم، كانت تتودد إليه بكل الطرق ،لا تتوانى عن خدمته وتلبية طلباته حتى قبل أن يصرح بها، ولكن هيهات فقد شيدت فعلةُ أمها جدارا عاليا بينه وبينها، كان يزداد صلادة بمرور الأيام ،تبكي بحرقة، وعقلها الصغير لا يفسر كيف أن هذا الرجل الصلب القاسي يذوب حنانا مع أبنائه الآخرين، لولا لطف الله بها الذي جعل زوجة أبيها تحنو عليها وتعاملها مثل أولادها لا تدري ماذا كان مصيرها، رغم ذلك لم تستطع أن تبادله هذه المشاعر القاسية، وتمضي السنون بها جدباء وروحها عطشى لحنان والديها إلى أن أتى اليوم الذي لم تتخيله؛ فقد كان والدها رغم شح عواطفه معها رجلا قويا، ذا هيبة يخشاها كل من يعرفه لا يكل من العمل، يتابع كل شيء بنفسه ولا يأتمن أحدا على تجارته إلى أن شعر يوما بوعكة شديدة، وأخبره الأطباء بحاجته إلى جراحة كبرى لإنقاذ حياته ،أجرى إخوتها التحاليل اللازمة التي أثبتت تطابق اثنين منهم مع تحاليل والدهما، ولكنهما استبدلا ما يجري في عروقهما بماء آسن ولم يجرؤ أحد على التبرع له بقطعة من كبده، وها هو الآن ينام على السرير وقد هَدّه المرض.

وسط زخم الذكريات تعجبت كيف ما زالت تحمل له كل هذا الحب وتكاد تموت كلما رأته في هذه الغرفة، رفعت ليلى يدها لتكفكف دموعها عندما اقتربت منها الطبيبة لتقطع عليها خلوتها وتقول:

-لقد حان الوقت يا ليلى، لا بد أن نعُدَّك لإجراء الجراحة الآن.

قبل نهاية العالم

سنوات مرت ولم تغير شيئا من حاله المزري ،كان يعيش منبوذا بين أهل القرية فزجاجة الخمر لا تفارقه، وحيدا في منزله بعد رحيل أهله، يهرب من الوحدة بأن يثمل حتى يغيب عن الوعي.

ذات صباح بينما هو بين الثمالة والوعي، سمع جلبة شديدة في شوارع القرية فخرج مترنحا يستطلع الأمر. رأى أهل القرية يجرون فزعين وصوت إمام المسجد يدوي خلال الميكروفون وهو يقول في هلع وبصوت تخنقه العبرات:

- توبوا إلى الله؛ فالعالم مهدد بالفناء بعد خمسة أيام، وهو اليوم الذي حدده العلماء لاصطدام المذنب الهائل بكوكب الأرض.

بلسان ثقيل تمتم:

-أحسن خلينا نخلص.

ثم عاد إلى المنزل ليكمل يومه وحيدا مع زجاجة الخمر، في اليوم التالي ملأت حلقات الذكر المساجد والبيوت والطرقات، الجميع يبتهل ويدعو الله أن يحفظ العالم، خرجت النسوة إلى شاطئ النهر يتلمسن بعض الهواء عله يزيل الهم الجاثم فوق صدورهن، وخرج هو خلف النسوة يتلصص ويسترق النظرات إلى أجسادهن، عادت النسوة إلى البيوت إلا واحدة بقيت على شاطئ النهر رآها تسير على ضفته تتهادى في خطواتها شابة ذات قوام

ملفوف لين يتماهى خلف رداء مزركش، أدارت رأسها ناحيته بوجهها الأبيض المستدير وفمها الكرزي وتلاقت نظراتهما فلمح سهما من نور خرج من قلبها وانغرس في قلبه، لم يكن يدري أحقيقة ما يراه أم خيال .

في اليوم التالي أيقظته أشعة الشمس التي لفحت وجهه ليجد نفسه ممددا على شاطئ النهر وزجاجة الخمر فارغة بجواره. في المساء تكرر نفس المشهد؛ رأى الفتاة بجوار النهر وكأن طوقا من النجوم تشكل في هيئة تاج استقر فوق رأسها، اقترب منها سألها: من تكون؟ضحكت وقالت: ابنة العمدة.

هام بها وكان قلبه يرقص في جوفه فرحا وهما يتسامران حتى أرخى الليل أستاره، ثم تركته وذهبت، ظلا يلتقيان كل يوم، وفي اليوم الأخير استيقظ في الصباح فهو لم يتناول الخمر لأول مرة منذ سنوات طويلة، ذهب إلى بيت العمدة ليطلبها للزواج، استقبله والدها وعندما أفصح عن طلبه هب العمدة واقفا وقد كسا الغضب ملامحه فتبدلت، وتغير وجهه فأصبح ككرة لهب منتفخة وبكل قوة أمسك بأطراف جلباب الرجل عند رقبته وجذبه بشدة حتى تمزق في يده وكاد أن يخنقه بها، نظر إليه نظرات غريبة مستنكرة، ظن أنه يهذي أو أنه كعادته ثمل، قال له في حدة:

-هل أتيت لتسخر مني أم لتعيد لي حر الذكرى؟ لقد ماتت ابنتي الوحيدة غرقا في النهر منذ سنوات.

كان وقع كلمات الرجل عليه كالصاعقة، كان كمن سقط من السماء

وهوى على أرض مغطاة بصخور مسننة، خرج من عنده وهو يهذي ويهرول إلى أن وقف على عتبة المسجد، أراد الدخول، لأول مرة يريد أن يلجأ إلى الله لعله يوقف نزف روحه، وقف له بعض الشباب ومنعوه من الدخول، لكن الإمام رآهم فأسرع إليه وأدخله إلى حمّام المسجد وطلب منه أن يغتسل أولا، وعندما أصبح مستعدا أقام الإمام الصلاة وبعد الانتهاء من الصلاة وقف الإمام ليعلن على القرية عبر الميكروفون وقد تهدج صوته أن الخطر قد زال بحسب ما أبلغته الحكومة، أطال الشاب السجود، حرّكوه فوجدوه قد فارق الحياة.

سيدة القطار

وصلت إلى محطة القطار وأنا ألهث لكي ألحق به قبل أن يتحرك فقد كان السفر مفاجئا؛ لكي أطمئن على أختي التي تستعد لإجراء جراحة كبرى مفاجئة، دلفتُ إلى العربة التي كانت هي الأقرب في الوصول إليها على الرصيف، بحثت عن مقعدي الذي كان في آخر العربة الأخيرة وجلست.

مر بعض الوقت حتى هدأت أنفاسي وقل ارتباكي، جلت بنظري متفحصا العربة والركاب، كان العدد قليلا فتوزعوا على المقاعد بينما أغلبها ظل فارغا؛ فكان الصمت سيد الموقف لا يقطعه سوى همهمات متقطعة من حين لآخر، أسندت برأسي على ظهر المقعد ورحت أنظر عبر النافذة الملاصقة لي لكن كان الظلام حالكا في الخارج فعكس الزجاج صورة العربة من الداخل، وتبينت من خلاله ملامح بعض الركاب الذين استغرقوا في النوم الذي سرعان ما داعب جفوني أنا أيضا؛ فأغلقت عيني مستسلما عسى أن يرتاح عقلي من التفكير والقلق .

بعد مدة استيقظت على صوتٍ يعلن وصولنا إلى إحدى المحطات ،وشعرت برغبة شديدة في شرب فنجان من القهوة؛ فتوجهت إلى البوفيه وأحضرته ثم عدت إلى مكاني كي أحتسيه على مهل، وبينما أنا كذلك إذا بحسناء تقف أمامي وتستأذن في الجلوس في المقعد الخالى بجواري، كانت فتاة طويلة، بيضاء مشربة بحمرة، ذات عيون سوداء واسعة وشعر مجعد

أطلقته على كتفيها، ترتدي ملابس بدت لي قديمة التصميم، مر بعض الوقت ولم تنبس بكلمة، ثم رأيتها تخرج كتابا من حقيبتها وبدأت تتصفحه في صمت، يبدو أنها تهوى القراءة مثلي مما شجعني وبعد أن أخذت نفسا عميقا بادرتها:

-هل تحبين القراءة؟نظرت إليَّ وأجابت بعد تردد:

-بكل تأكيد؛ فهي مَن يؤنس وحدتي خصوصا في السفر، واعتدت أن يكون معي كتاب في حقيبتي دوما.

-أنا أيضا أحب الكتب والقراءة، ولكني سافرت اليوم بشكل مفاجئ فلم أحضر معي أحدها.

-إذا كنت تريد فمعي كتاب آخر في الحقيبة .

ومدت يدها فأخرجته له. تناول منها الكتاب بامتنان وأردف:

-يا لها من مصادفة جميلة!! فهذا الكتاب لكاتبي المفضل.

لاحت منها ابتسامة خفيفة ونظرت له بطرف عينها وقالت:

-أعرف .

ثم واصلت تصفح الكتاب الذي بين يديها. تعجب من ردها، ولكنه خشي إن سألها كيف تعرف ذلك أن يبدو لحوحا في نظرها ويكون سببا في إزعاجها فصمت. مضى بعض الوقت وهما يقرآن، ومد يده ليرتشف آخر قطرة في فنجان القهوة فإذا بها تباغته وتمدّ يدها وتمسك بالفنجان وتسأله:

-أتريد أن أقرأ لك الفنجان؟ضحك وهو يقول:

-أحقا تجيدين قراءته؟

نظرت إليه نظرات غامضة شعر أنها اخترقت قلبه وسرت قشعريرة في جسده وهي تقول:

-نعم وإذا كنت لا تصدقني فلتجرب.

فاستسلم لها وهي تقلّب الفنجان بين أصابعها مع قطرات القهوة المتبقية حتى غطت جدران الفنجان من الداخل ثم قلبته على الطبق، مرت ثوان ثم عدلت الفنجان وأخذت تنظر بعين متفحصة الشبكة العنكبوتية من الخطوط التي ارتسمت بداخله، ورفعت رأسها وهي تقول له:

-سوف تصل، ولكن بعد فوات الأوان .

ثم أدارت الفنجان مرة أخرى بتمعن ثم ضحكت وهي تخبره:

-هناك عقدة سوف تنحلّ وسوف يرتاح قلبك بقرب من تحبها.

هنا تملكته الدهشة من صدق كلامها رغم أنه لم يؤمن يوما بقراءة الفنجان والطالع، ولكن كيف عرفت أنه لا يستطيع الزواج ممن يحبها ،لمسة حزن كست ملامحه عندما تذكر دعاء حبيبته والخلافات بين عائلتيهما التي تحول دون ارتباطهما. وسط ذهوله مما يسمع وقبل أن تكمل ،يتوقف القطار في إحدى المحطات لتقف وتخبره أنها محطة وصولها ويجب أن تغادر؛ فتلقي عليه السلام وهي تجري قبل أن يتحرك القطار. فجأة ينتبه أنها قد نسيت كتابها معه فيهب واقفا وهو ينادي عليها بأعلى صوته:

-الكتاااب؛ لقد نسيتِ الكتاااب .

ولكن القطار قد تحرك وعاد ليجلس، ولكنه وجد أن أعين الركاب مصوبة إليه وهم يضربون كفا بكف. رفع أحدهم صوته بفزع قائلا:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

بينما اتجه إليه الباقون وهم يسألونه: مَع مَن يتحدث؟

وعندما أخبرهم أن الفتاة التي كانت بجواره تركت كتابها وغادرت لم يجد منهم غير نظرات رعب قد ارتسمت على وجوههم وهم يخبرونه:

-إن المقعد كان فارغا ولم يكن أحد بجواره طوال الرحلة .

ساندوتش

على أحد الأرصفة داخل محطة مصر، رمي بجسده المثقل بالهموم وقد اكتست ملامحه بحزن عارم كمن فقد عزيزا له للتو، احمرّت عيونه من أثر البكاء، وأخذ يكفكف دمعه الذي سال مدرارا. لا يدري كم من الوقت مر وهو هكذا، شاخصا ببصره الزائغ إلى السماء حتى غابت السماء أمام حدقتيه رويدا رويدا لتتشكل مكانها ملامح أمه الباكية ونحيب إخوته الصغار وهم يركضون نحوه ويتعلقون بملابسه لا يريدون أن يرحل، كم كانت لحظات قاسية!! أعادت له ذكريات رحيل والده عن الدنيا منذ سنوات حيث تركهم يكابدون مرارة الفراق وشظف العيش.

بعد حصوله على شهادته المتوسطة، توسط له أحد الجيران للالتحاق بالعمل في أحد المصانع في الإسكندرية واليوم يسافر، ضغطت مشاعر الحزن بكفها الثقيل على خافقيه، وشعر بإنهاك من كثرة النحيب فهذه المرة الأولى التي يفارق فيها أمه وإخوته، أسند رأسه على ظهر المقعد فراح في غفوة سمحت أن يتسلل إلى أذنيه صوت تكتكة ماكينة الخياطة ورأى أمه جالسة أمامها منحنية الظهر تحيك الملابس للجيران، فهذا ما لجأت إليه ليُعينها على تربيتهم، انتبه من غفوته على صوت قطار الصعيد وهو يدخل إلى المحطة، فرك عينيه وقد شعر بالجوع يقرص معدته، أخرج الساندوتش الذي أصرت والدته على أن يتناوله، ولكنه وضعه في حقيبته

،وما إن أخرجه حتى سمع صوت بكاء طفل صغير على الرصيف المقابل ،أدار رأسه فرأى الصغير بجوار والدته يخبرها أنه جائع وبدا من ثيابهما الرثة بساطة حالهم وأنها ليس لديها ما تطعمه له؛ فحمل الساندوتش وذهب إليها وأعطاه للطفل، كانت النظرة التي رآها في عيني الصغير كفيلة بأن تنسيه بعض الحزن الذي يكابده، ولكن عصافير بطنه ما زالت تزعجه، فما كان منه إلا أن غادر للبحث عن مكان يشتري منه الطعام، بحث حتى وجد عربة فول تقف خارج المحطة، توجه إليها وطلب ساندوتش وبينما يعُده له البائع، وقعت عينه على بيت من الشعر زيَّن به البائعُ عربة الفول:

وَكَم لِّله مِن لطُفٍ خَفيٍّ
يدِقُّ خَفاهُ عَن فَهمِ الذَكيّ
وَكَم أَمرٍ تسُاءُ بهِ صَباحا
وَتأَتيكَ المَسَرَّةُ بِالعَشيّ

وبينما هو شارد يتأمل معناه إذا بصوت انفجار هائل يخرج من داخل محطة القطارات وكأنه يوم القيامة؛ حيث حول الرصيف بالداخل إلى ركام ،واختلطت قطع الحديد بأجساد المسافرين، وقف متجمدا لا يصدق ما يحدث ولا يصدق أنه نجا للتو من موت محقق فأخذ لسانه يلهج بالشكر لله.

رباب

كانت الشمس على وشك الغروب، عندما تجمع الناس على شاطئ النيل حول الجثة التي أخرجوها منذ دقائق، كانت لسيدة تبدو أنها في أواخر الثلاثينات من العمر، ترتدي فستانا أخضر.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، حَد يشوف شنطتها، يمكن نعرف مين الست دي يا جماعة.

قال أحدهم وهو يضرب كفا بكف. قال الذي رآها تقفز ولم يتمكن من اللحاق بها بعد أن فتّش ووجد بطاقتها:

-اسمها «رباب.»

قبل ساعتين من الآن، كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرا في تلك الغرفة الضيقة داخل إحدى الشقق القديمة بإحدى الحارات، جلست ريري أمام المرآة المتهالكة، تضع مكياجها الصارخ، أمسكت بأحمر الشفاه الأحمر القاني بلون الدم، وأغرقت به شفتيها، وغطت وجنتيها بأحمر خدود وردي، ورسمت عينيها بالكحل الأسود الكثيف، ثم أمسكت زجاجة العطر ورشت منها على رقبتها وملابسها، كانت رائحة العطر نفاذة، خانقة ،تكشف عن نوع العطر الرخيص الذي تستخدمه .

ثم وقفت تتأمل فستانها الأخضر القصير الملتصق بجسدها، ذلك كل ما تحتاجه من أدوات لممارسة عملها الذي امتهنته مجبرةً منذ سنوات لا تعرف

عددها، كلما جلست هذه الجلسة تعاهد نفسها أنها المرة الأخيرة ،ولكن «أم سيد» لا تتركها تنفذ قرارها وتحاصرها بالتهديد تارة والوعيد تارة أخرى؛ فلا تجد ريري مفرا من الرضوخ لها، فهي مقطوعة من شجرة وليس لها أحد في هذه الدنيا، برغم مرور كل تلك السنين إلا أن هذه الجلسة التي تجلسها كل يوم تقريبا لم تفقد قدرتها على بث الحزن في روحها، وكل مرة تجلس أمام المرآة يمر شريط الذكريات أمام عينيها، فتزداد حزنا وانكسارا، كلما تذكرت حياتها قبل 23 عاما من الآن؛ حينها كانت صبية جميلة، بريئة، تعيش سعيدة لا تحمل همًّا رغم بساطة أسرتها وحياتهم، حتى وإن كانوا يعيشون في غرفة تحت سلم العقار الذي كان يعمل والدها حارسا له في حي الزمالك.

كانت ابنة وحيدة، حباها الله بجمال لافت، عيون ملونة، وشعر بني ،وجسد أبيض ممشوق جعلها مسار حسد رفيقاتها، أكملت ريري تعليمها حتى المرحلة الإعدادية، وفي السنة الأخيرة لها حَدَثَ ما غيَّر مسار حياتها للأبد؛ فقد كان من سكان العمارة التي يحرسها والدها أحد الأثرياء العرب الذي اعتاد على قضاء الصيف في القاهرة، ما إن رآها حتى سال لعابه وجنّ بها ،وأغدق على والدها النقود وأغراه بحلم الثراء، وطلب منه أن يتزوجها، أول ما يتداعى أمام ناظريها عند اشتعال فتيل الذكريات هي لحظة وقوفها أمام والدها ليخبرها بقراره تزويجها للشيخ عيسى المزروعي، وهي صامتة إلا من صوت نحيب مكتوم يمزق أحشاءها، ودموع غزيرة أغرقت وجنتيها

الحمراوين. تتذكر كيف انقطعت عن الطعام والشراب لأيام لعل والدها يرق لحالها، ولكن إغراء الدنانير كان أقوى وأشدّ.

تتذكر ليلة زفافها التي شعرت فيها وكأنها تزف إلى قبرها، تذكرت أنفاس الثري الكريهة، المعبأة برائحة الخمر التي ظل يحتسيها حتى غاب عن الوعي، وتذكرت كيف انهال عليها ضربا وركلا، وقال لها- عندما أبدت بعض التمنع في ليلتهما الأولى خوفا ورهبة -: إنه اشتراها من والدها.

مرت الأيام ولم تدرِ لحسن حظها أم لسوئه؛ حملت ريري في الشهر الأول من زواجها، فرحت وظنت أن هذا العجوز سوف يرقّ لها، ويغير معاملته الجافة معها بعد أن تصبح أم ولده، مرت فترة الحمل التي قضتها وحيدة بعد أن عاد زوجها إلى بلده، وعاد في يوم عيد ميلاد «وحيد» ابنهما الذي أكمل سنة من عمره. بقي معها أسبوعا، وفي يوم استيقظت لتجد أن زوجها أخذ ابنها وباع الشقة وسافر، لم تعرف عنه أيَّ شيء بعدها ،وخرجت من شقتها بحقيبة ملابسها وقد امتلأت كرها للعالم كله وأولهم أبوها الذي لم تطاوعها قدماها للعودة إليه؛ فهربت وبقيت ريري وحيدة بلا أهل، ولا مال، ولكنها تذكرت «أم سيد» السيدة التي كانت تتردد على زوجها، وتأتيه بالخادمات، كانت قد زارتها بعد ولادتها، ودست في يدها ورقة سجلت بها عنوانها وتليفونها وقالت لها وقد بدت منها نظرة عجزت عن تفسيرها في حينها: «أنتظر زيارتك قريبا». ومضت .

بحثت ريري عن الورقة، فوجدتها في حقيبتها، ما إن سمعت السيدة

صوت ريري عبر الهاتف حتى رحبت بها بشدة، وأبلغتها أنها في انتظارها حالا في بيتها، بعد أن وصفت لها العنوان.

لم تجد ريري أمام الحفاوة التي استقبلتها بها السيدة إلا أن تحكي لها عن ظروفها، وكيف أنها أصبحت وحيدة في هذه الحياة، لكنها طمأنتها، وطلبت منها أن تعيش معها فهي وحيدة مثلها، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى كشفت أم سيد عن وجهها الثاني فلم تكن مسؤولةَ خدمٍ ولا الخادمات كن خادمات، وخيَّرت ريري؛ إما إن تسمع كلامها وتسير في نفس طريقها وتعمل نفس مهنتها، وإلا فإن مصيرها الطرد من الشقة فهي «مش فاتحاها تكية» كما قالت لها بنبرة حادة تغلفها نظرات خبيثة، فقد كانت تستخدم السيدات لتلبية رغبات الأثرياء العرب ومصاحبتهم.

ولم تجد ريري طريقا سوى الرضوخ لها، وأصبح لها زبائنها الذين يطلبونها بالاسم، وفي تلك الليلة أخبرتها أم سيد أن هناك زبونا جديدا عليها أن تذهب له في شقته المطلة على النيل؛ فهيّأت نفسها وذهبت، كان شابا عربيا، وبعد أن أنهت مهمتها، شعرت بامتعاض؛ لأن المبلغ الذي أعطاه لها قليل، وما إن استغرق في نومه حتى أخذت تقلب في جيوب ملابسه الملقاة على كرسي في الغرفة، وبينما هي تفتش، وقعت صورة صغيرة لرجل مسنّ أمسكتها وتفحصتها، لم تصدق عينيها لبرهة وأخذت تقلب في الجيوب كالمجنونة حتى وجدت الباسبور، فتحته وقرأت الاسم المدون به: «وحيد عيسي المزروعي.»

في تلك اللحظة شعرت وكأنها تغوص في بحر من الرمال المتحركة ولاتقوى على الحركة، أمسكت صدرها وكأن خنجرا غرس في هذا المكان ،استجمعت ما بقي بها من قوة وخرجت مهرولة، تبكي، وتصرخ، إلى أن وجدت نفسها هي والنيل وجها لوجه، وقفت على حافة النهر ترتجف تحاول أن تتخلص من ضجيج الأصوات الكثيرة التي انفجرت في رأسها مثل عواء قطيع ذئاب جائع، أو طنين سرب هائج من الدبابير، تضع يديها على أذنيها علها تخرسها، ولكن الأصوات تتزايد وتعلو وكأنها تكيل لها اللعنات ،تغلق عينيها، تهز رأسها ومن بين دموعها تحدث نفسها: «لم يعد في الحياة مكان لأمثالي، أعلم أن ما فعلتُه ذنب عظيم وما سأفعله أعظم والجحيم في انتظاري فأنا أعرف ما فعلته وأنني أستحق سخطك يا رب، ولكني أعلم أن رحمتك أكبر ولطفك أعظم فأنت تعلم أنني قضيت حياتي أنفذ قرارات غيري فليكن هذا أول قراراتي .»

ثم لم تتردد وهي تلقي بنفسها في مياهه .

جرس المنبه

جرس المنبه يدق، ترفع يدها وتهوي بها عليه لتسكته قائلةً وهي تجرّ نفسها لتنهض من سريرها:

-أتمنى أن تختفي كل المنبهات من العالم .

«ضحىَ» شابة عشرينية تعمل في إحدى الشركات، تعول أسرتها المكونة من والدتها وأخ وأخت صغيرين بعد وفاة والدها فجأة منذ سنوات قليلة لتصبح بعدها رجل العائلة. تسمع صوت والدتها يناديها لتناول الأفطار ،ترتدي ملابسها بسرعة وتتجه إلى الصالة، تلقي على والدتها تحية الصباح تتناول قطعة من الخبز تحشوها بالجبن وتتناولها وهي واقفة.

-لماذا لا تجلسين لتأكلي معنا؟

- لا وقت لديّ، لا بد أن أذهب بسرعة حتى لا يسمّ بدني بكلماته (تقصد مديرها في العمل).

-ربنا يهديه عليكي يابنتي، طمنيني عليك عندما تصلين إلى الشركة .

قالتها بصوت مرتفع حتى تسمعها ضحى التي هرولت إلى الخارج. ما إن تدخل من باب الشركة حتى تجد المدير أمامها:

-ما بدري يا هانم!!

-صباح الخير يا أستاذ سعيد، آسفة فقد كان الطريق مزدحما.

يشيح بوجهه عنها ولا يجيب، ويشير إلى كومة من الملفات يأمرها أن تراجعها:

-أريدها أن تكون جاهزة اليوم .

قال لها وهو يحدجها بنظراته الحادة من فوق نظارته التي أرخاها حتى كادت تسقط عن طرف أنفه. أخذتها وذهبت إلى مكتبها في صمت. ألقت بالملفات على مكتبها في حدة وهي تتمتم في سخط: «كم أكره هذا الرجل!! أما آن لهذا الظلم أن ينتهي؟ .»

إنها تعاني من معاملته الجافة وتحميلها فوق طاقتها من أعباء العمل؛ لأنه يدرك حاجتها الشديدة لهذا العمل حتى إنها تستمر ساعات طويلة تعمل بعد مواعيد العمل الرسمية دون مقابل، ويزيد من النكاية بها فيكلفها بإعداد الشاي والقهوة له ولضيوفه وكأنها عامل البوفيه وكأنه كتب عليها هذه المهمة في البيت وفي العمل بعكس زملائها الرجال .

تتشارك المكتب مع ثلاثة آخرين: رجلين وسيدة (مدام عطيات) الوحيدة التي تحبها في الشركة لما لمسته منها من عطف وحسن معاملة، في أول يوم عمل لها انتحت بها جانبا وطلبت منها أن تنتبه في تعاملها مع باقي الموظفين وخصوصا «علي» الشاب الوسيم الذي يحاول أن يلقي بشباكه على أي موظفة جديدة وهو ما حدث؛ إذ لم يمر أسبوع لها في الشركة وإذا به يدس لها ورقة برقم تليفونه على مكتبها، ولكنها لم تسكت ونهرته بشدة على فعلته، ومن يومها لا يطيقها ويتحين كل فرصة لإذلالها وتحميلها بالمهام مستغلا أنه أقدم منها، أما «طارق» الموظف الثاني في المكتب فقد كان شابا من أسرة بسيطة، وعندما رأى تعاملها مع «علي» آثر أن يتعامل معها

بحذر وتلمحه يختلس النظر إليها من بعيد.

-لقد تعبتُ، أما من نهاية لهذا الشقاء؟ كل يوم أنهي كل هذا العمل وكأني الموظفة الوحيدة في الشركة .

تُحدث ضحى نفسها سرا وهي خارجة من باب الشركة بعد حلول الظلام وهي تحلم أن يأتي غدٌ وقد اختفت المنبهات من العالم.

الصديق

شيء ما جذبني إليه عندما رأيته يقف وحيدا في منتصف الطريق ينظر في الفراغ أمامه وقد غزت الحيرة ملامحه وأنا أقاوم شعورا بأن هذه الملامح ليست غريبة عني.

شيخ في الستينات من العمر يقف واضعا يده في جيب بنطاله البني بينما التف حزام قديم حول خصره بطريقة غير مهندمة، شكل شعاع الشمس الساقط على بقايا شعره الفضي في مؤخرة رأسه هالة من النور حولها وحفر الزمن خطوطه على وجنتيه، وكانت شفتاه الضامرتان كقطعة قماش مكشكشة سحب خيطها تحيطان بفمه الذي كاد يخلو من الأسنان. عندما رأيت الحقيبة الخضراء المعلقة على ظهره أدركت أنه غريب أو آت من سفر بعيد فاقتربت منه عارضا مساعدته، نظر إلى بعينين تبحثان عن قشة النجاة وقال:

-نعم يابني فأنا من أهل هذه البلدة وغادرتها منذ سنوات طويلة وعدت اليوم لأجد أن كل شيء قد أصابته رياح التغيير فتبدلت الوجوه والمعالم.

بدا من اصفرار شفتيه وتعرج جلدهما أنه لم يتناول شيئا من الطعام منذ وقت طويل؛ فاصطحبته إلى الكافيتيريا المجاورة للمحطة، طلبت له بعض الساندوتشات التي تناولها على مهل، كان صامتا طوال الوقت وأنا أجلس على الكرسي المقابل له فإذا به ينظر إلى ويقول:

-لقد كان لنا بيت كبير هنا، به حديقة كبيرة، وكان لي أصدقاء أيضا .

ثم فتح حقيبته وأخرج منها صورة قديمة بها بعض الصبية ووجهها نحوي وأشار إلى الفتى في المنتصف وأردف:

-هذا أنا أقف في المنتصف.

انتابتني الدهشة عندما رأيت الذي يقف على يمين الصورة؛ فقد كانت صورة أبي صبيا عندها صحت عاليا:

-أأنت العم فتحي؟ لقد حدثني والدي عنك كثيرا جدا، يا لها من مصادفة جميلة!! سوف يطير أبي فرحا عندما يراك.

ذهبنا إلى المنزل وما إن رآه أبي حتى عانقه عناقا حارا غير مصدق أنه يراه بعد تلك السنين الطويلة، وأمر والدي بإعداد غرفة الضيوف حتى يبق بها العم فتحي وقضيا ساعات يسُران لبعضهما بأحداث الزمان وأفعاله وتقلباته معهما طوال السنين الماضية، ويسترجعان ذكريات الطفولة والصبا، وبينما يتحدثان ساد صمت برهة واعتلى الحزن ملامح الشيخ عندما جاء إلى ذكر ابنه الوحيد «علي» فقال بكلمات حزينة إنه: قبل عدة ساعات مضت، كان بين أحفاده الصغار يلاعبهم وينعم بدفء محبتهم الخالصة له، هم توأم ابنه الوحيد علي الذي أخذه ليعيش معه في بيته بعد رحيل والدته، قضى شهورا معهم يحيطه علي بحبه ورعايته؛ فردت روحه واستعاد عافيته.

في كل صباح يصحو مبكرا لصلاة الفجر وبعدها يخرج للتريض قليلا ثم يعود بكل همة ليقل أحفاده إلى المدرسة ويجلب طلبات المنزل وهو

عائد في طريقه حتى يوفر علي زوجة ابنه عناء الذهاب إلى السوق، ويذاكر لهم ثم يساعدهم في عمل الواجبات بحكم أنه كان مدرسا.

حتى كان يوما عائدا من ممارسة رياضة المشي اليومي، وتسمرت قدماه على عتبات البيت عندما صكت أذنيه أصوات شجار بالداخل سرعان ما تبين له صوت ابنه وزوجته، سمعها تشكو من تدخله في شئون المنزل والأولاد وتقول بصوت هادر:

-إما أنا أو والدك بالمنزل.

اهتزت الأرض تحت قدميه فاستند بظهره على الباب، عدة دقائق مرت كالدهر ثم استعاد رباطة جأشه وتظاهر بأنه لم يسمع شيئا ودق جرس الباب، استقبله ابنه وقد تملكه الاضطراب راجيا ألا يكون والده قد سمع شجارهم.

دخل العجوز بهدوء مما أزال القلق عن ابنه. في ساعة متأخرة جمع بعض ملابسه في حقيبته الصغيرة ثم طبع قبلة على جبين أحفاده وهم نيام ،وفي عتمة الليل غادر بعد أن ترك ورقة كتب عليها:

-سوف أعود إلى بلدتنا القديمة.

استقل الحافلة وبعد سفر طويل، وما إن وطئت قدماه أرض البلدة حتى وقف مبهوتا مما رأى فقد تغير كل شيء من حوله؛ حلت البنايات الضخمة محل البيوت القديمة، اختلفت الطرق واختفت معالم الأماكن فوقف حائرا لا يعلم إلى أين يذهب. قال أبي:

-أنت الآن بين أهلك يا حاج فتحي وقد جئت في وقتك تماما؛ فأنا أدير مركزا لتعليم الأطفال وأنا بحاجة لشريك يساعدني في تعليم أطفال القرية القرآن الكريم، ولن أجد أفضل منك لهذه المهمة.

تهللت أسارير الحاج فتحي فرحا عندما وجد أن هناك مَن بحاجة إلى مساعدته وأن لديه ما يمكن أن يقدمه لأطفال القرية، وتأكد من أن الله كتب له أن ينُهي حياته في هذه القرية كما بدأت منها .

ونحن كذلك إذا بتليفون الشيخ يرن وكان المتصل ابنه علي، فردّ عليه باقتضاب أن الله قد ساق إليه رسالة جديدة يريد أن يؤديها وبعدها قد يفكر في العودة.

بلا أمل

كان أحد أيام الصيف عندما قرر أن يدعو خطيبته للتنزه على شاطئ البحر، خطفت قلبه حينما رآها في الكلية، كان يسبقها بعامين، تشاركا في أنشطة اتحاد الطلبة، كان الوقت الذي يقضيانه داخل الكلية كافيا للتقريب بينهما، لامس نجوم السماء عندما باح لها بمشاعره ووجدها تبادله نفس الشعور، تعاهدا على أن يكملا مسيرة الحياة معا. ما إن تخرج حتى تقدم لخطبتها وأصبحت قصة حبهما مضربا للأمثال.

تزينت «رنا» للقائه في ذلك اليوم وجاءته تتهادى في ثوبها المنقوش وقوامها البَضّ، كل خطوة لها كان يشعر وكأن الأرض ترقص تحت سحر قدميها المرمريتين. جرى لاستقبالها وصحبها للطاولة التي أعدها واختار موقعها بعناية فوق تلة مرتفعة عن الشاطئ حتى يستمتعا برؤية واضحة للبحر، ما إن جلسا حتى ترامى إلى أسماعهما صوت فيروز يأتي من الكافيتيريا تصدح: «شايف البحر شو كبير، كبر البحر بحبك، شايف السما شو بعيدة، بعد السما بحبك، كبر البحر وبعد السما بحبك يا حبيبي ،يا حبيبي بحبك .»

دنا منها مصوبا نظره نحو عينيها العسليتين:

-هل تتذكرين أول مرة نسمع فيها هذه الأغنية؟

ضحكت فكشفت عن غمازتين ساحرتين في خديها وهزت رأسها: نعم.

مر الوقت سريعا وبين بوح وصمت سال وفاض طوفا ن المشاعر بينهما. طلب عصير المانجو لهما فهو يعلم أنها عاشقة لكل أنواعها. بعد أن فرغا من شرب العصير أمسك يدها وسارا حتى وصلا للممشى الخشبي الذي يمتد إلى داخل البحر، التقط لها بعض الصور ووقفا يتأملان منظر المياه الفيروزية وهي تعانق قرص الشمس. أدارت رأسها نحوه فجأة لتقول له بدلال:

-تحدثني دائما عن براعتك في القفز والسباحة في البحر، أريد أن أرى ذلك الآن والماء يكذب الغطاس.

وكأن كلماتها جاءت لتنقذه من فورة الدماء التي اجتاحت عروقه وهي بجانبه، ضحك ضحكة عالية وبسرعة أزال عنه ملابسه العلوية وقفز في البحر، وهي تلاحقه ضاحكة وتقول:

-يا مجنون، يا مجنون، كنت أمازحك.

مرت دقائق وهي تنظر إليه من أعلى تنتظر أن يشق برأسه سطح المياه ،ولكنه لم يفعل، تعالى صوتها بالصراخ وهي تناديه؛ هرع من بالشاطئ إليه ،أخرجوه، نقلوه إلى المستشفى، أخبرهم الأطباء أنه أساء تقدير عمق المياه فاصطدم رأسه بصخرة أصابته بكسر في العنق وكدمة في الحبل الشوكي .ظل في المستشفى عدة شهور وأجريت له جراحات عديدة، كانت رنا تزوره بانتظام في البداية ثم على فترات، فيما بعد، كان يخشى أن يعرف تفاصيل ما يعانيه فلم يستفسر، ولكنه عرف حقيقة حالته من عيون أمه الغائرة المرتعشة، ونظرات والده الذابلة الزائغة، وشقيقته التي ضمر جسدها حزنا

.شلل رباعي، شخّص الأطباء حالته، يحتاج إلى علاج طويل والله وحده بيده الشفاء، هكذا أخبروهم.

في اليوم المقرر لخروجه من المستشفى أتى أهله وأصدقاؤه لاصطحابه إلى المنزل، أخذ يتفقد وجهها بين الحضور فلم يجده، التمس لها العذر فربما شُغلت بشيء مهم. طال غيابها، أسابيع منذ أن عاد إلى المنزل ولم يرها أو يسمع صوتها حتى صارحه والده بالحقيقة عندما ألح في السؤال عنها، وهو يخفي دمعة تسللت بين ثنايا خديه قال والده:

-لقد أرسلت الشَّبْكة.

الوحدة

أرقبها تتقلب كأنها على فراش من شوك، تحملق في سقف الغرفة تتنهد ،زفراتها حارة كأنها غادرت للتو فم تنين الأساطير، تستجدي النوم أن يأتي ،ولكنه لا يستجيب، تزيح عنها الغطاء وتنهض بعد أن سرت الحُمّ في أوصالها، نتر جسدها قطرات غزيرة فسالت حتى بللت ملابسها، شدت ستارة النافذة، تطلعت عبر زجاجها الموصد، الأفق السرمدي المعتم الذي تخلى عن لآلئه ونفضها عنه هذه الليلة زادها انقباضا، أشعلت سيجارة ونفثت دخانها عاليا، أمسكت هاتفها وضغطت بعض الأزرار وهمّت أن تتصل، ولكنها تراجعت، بحثت في الرسائل توقفت عند رسالة واحدة تقرأها للمرة المئة توقفت عند السطر الذي يقول:

-لن أستطيع النزول هذا الصيف أيضا لظروف العمل.

ارتعشت ملامحها وفاض طوفان عينيها الواسعتين، وبينما تعصف بها الهواجس ويمزق نياط قلبها اللوعة والاشتياق، كنت أرقد في انتظارها ،أكاد أطير في الغرفة من فرط سعادتي فها هي تعود إليّ من جديد وحيدة ،أبسط لها براح قلبي لتتمدد عليه ويملؤني عطر أنفاسها، وألثم وجنتيها حينما تغمر وجهها في وسائدي، وأطفئ حرارة جسدها حينما أغمرها بصقيع شراشبي فكم شهدت أخشابي ووسائدي على لوعة ما تفقده.

الجارة العجوز

ظننت أن حياتي تسير على أفضل ما يرام، سيدة أعمال ناجحة، تدير شركة يعمل بها مئات الموظفين، أعيش في فيلا فخمة أشبه بالقصر ،يديرها عدد من الخدم، اجتهدت طوال حياتي أنا وزوجي من أجل هذه الحياة الرغدة، أبناؤنا في أرقى المدارس ولا نبخل عليهم بشيء أبدا مهما غلا ثمنه، أراهم مساءً قبل أن تصحبهم المربية للنوم وأطمئن أنهم أدوا واجباتهم المدرسية.

ذات يوم بعد عودتي من عملي مساءً وأثناء توجهي إلى غرفتي تنامَى إلى أذني صوت نحيب مكتوم يصدر من غرفة ابنتي، هرولت إليها وما إن دخلت هالني منظرها، وجدتها تبكي وتنتحب بشدة حتى احمرت عيناها وانتفختا ولم أرها تبكي هكذا من قبل، زلزلني بكاؤها فضممتها إلى صدري وسألتها:

-لماذا كل هذا البكاء والنحيب؟!

أجابتني بصوت مبحوح أن: جارتنا أم مجدي ماتت .

وهي سيدة في الستين وكنت أسمح لها بالذهاب إليها وزيارتها، ذهلت من ردها وقلت لها:

-لماذا تبكين عليها هكذا فهي سيدة عجوز وليست من عمرك حتى تتعلقي بها ويؤثر بك رحيلها هكذا؟

فإذا بها تنظر إلى نظرة لن أنساها وتقول:

-لقد كانت تلعب معي، وتقرأ لي القصص، وتأخذني معها للتنزه والفسحة وقد وعدتني هذا الأسبوع أن تأخذني لزيارة حديقة الحيوانات.

كانت تلك الكلمات هي الصفعة القوية التي تلقيتها من ابنتي ذات التسعة أعوام دون أن تدري، حين تذكرت أنها لم تذرف دمعة واحدة عندما أجريت جراحة كبرى كادت أن تودي بحياتي. خجلت من نفسي وأنا أتذكر كم مرة أخلفت وعدي بالعودة مبكرا وقضاء الوقت معها!! وكم مرة نامت على الأريكة بعد أن غلبها النعاس وهي بانتظاري بعد انشغالي في أحد لقاءات العمل!! وتذكرت نظرتها لي عندما وصلت في آخر دقيقة إلى الحفل الذي كانت تشارك فيه في المدرسة، في تلك اللحظة فقط أدركت أن ما قالته ابنتي كان رسالة من الله لكي أنتبه، وأعيد ترتيب أولويات حياتي من جديد بعد أن سألت نفسي: «هل إذا مت سوف تحزن عليَّ ابنتي مثل هذا الحزن؟.»

الجزيرة

كان ممددا على الأرض وعيناه شاخصتان لأعلى، ما إن فتح عينيه ارتسمت أمام ناظريه حزمة من أشعة حلزونية ملونة، تزداد علوا حتى تلتقي عند دائرة شكلتها أطراف الأشجار الضخمة على شكل قرص دائري، نفذ منه شعاع باهت من أشعة الشمس، شعر وكأنه قد نجا للتو من دهس قطار طائش، وكمن تلقّ للتو خبطة شديدة على مؤخرة رأسه حاول أن ينهض فخانته قواه وعاد وانطرح على الأرض، وضع يده خلف رأسه يتحسسها ليعرف مصدر الألم الشديد في تلك المنطقة فكان هناك جرح غائر، يسيل منه خيط من الدماء الحارة اللزجة.

-اللعنة، أين أنا؟ قال بصوت واهن، وما الذي جاء بي إلى هنا؟ حاول أن يهدأ ليقضي على نوبة الفزع الشديد التي انتابته فأخذ شهيقا عميقا وأخرجه زفيرا ببطء، مر بعض الوقت وهو على هذه الحال وهو يحدق في تفاصيل المكان من حوله ويحاول أن يسترجع ذاكرته، آخر شيء يتذكره عندما كان يجلس في مقعد القيادة بجوار زميله الطيّار الآخر وهما يتناقشان حول العاصفة الشديدة التي يواجهانها فخفضا من ارتفاعها لتدنو من سطح المحيط، اعتدل قليلا وأعاد النظر حوله لاستكشاف المكان، تحرك زاحفا بصعوبة نحو حقيبة كانت ملقاة بجواره وقطع من الحديد متناثرة حوله، فتحها ولم يجد بها غير زجاجة ماء وقالب من البسكوت المغلف وبعض الملابس وهو

لا يدري إلى متى سوف يبقيه هذا الطعام القليل على قيد الحياة .

ظل مكانه غير قادر على الحركة وقواه خائرة تماما فأغمض عينيه واستسلم للنوم وراح في سبات عميق، استفاق من نومه فَزِعا على أصوات وهمهمات عالية بقربه، فتح عينيه وانتصب مفزوعا عندما رأى دائرة من النساء تلتفّ حوله، كانت أجسادهن ضخمة ذات لون أسمر داكن عرايا إلا من وشاح صغير أسود يغطي منطقة البطن لأسفل، تحمل كل منهن رمحا ضخما، رحُن يحدقن به ثم يتبادلن النظرات فيما بينهن ويتحدثن بلغة غريبة لم يفهمها ويتقافزن من حوله.

فجأة دقت إحداهن بطرف رمحها على الأرض فساد صمت مريب، بدا وكأنها قائدتهن ثم أشارت لهن بأن يحملنه، فوضعنه على لوح عريض من الخشب وتحرك الجميع في طابور طويل وهن يصدرن أصواتا تشبه الحُداء ،وما إن وصلن إلى طرف الغابة حتى أنزلنه ووضعنه على الأرض أمام امرأة أخرى تجلس على كرسي ضخم، كانت ذات ملامح أفريقية خالصة، ترتدي رداء من جلد النمر غطى أحد كتفيها وتضع على رأسها تاجا معدنيا برز منه في المنتصف أحد أنياب الفيل الضخمة، أدرك من هيئتها أنها زعيمة القبيلة، حاول أن يتحدث فوكزته إحدى الواقفات بطرف رمحها فصمت وهو يكتم ألمه، تبادلت الزعيمة الحديث مع الأخريات ولم يتبين بأي لغة يتحدثن، ثم نظرت إليه وسألته بلغة يفهما:

-ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قص عليها ما يتذكر فاطمأنت له وأخبرته أنها زعيمة هذه القبيلة التي تحوي النساء فقط بعد أن قُتل رجالها في الحروب، ثم أمرت النساء أن يحملنه إلى أحد الأكواخ وأن يداوين ما به من جروح.

مرت أسابيع كثيرة وهو يعاني من ويلات حُمّ شديدة، ولكنهن قمن بتطبيبه، وربط أماكن الكسور في جسده، حتى تماثل للشفاء وغمرت دماء العافية جسده، إلا من بقايا جروح طفيفة، وإن كان ما زال يتوكأ على عكاز حين يتحرك.

خلال تلك الفترة عرف أن هذه جزيرة في المحيط لا يشارك النساء فيها إلا حيوانات الغابة البرية وأشجارها الضخمة وبضع أكواخ متناثرة هنا وهناك، تمارس النساء الصيد والقنص فتركت تلك الحياة بصمتها عليهن فأصبح بهن غلظة وشدة تختفي في المساء حينما يطغى الظلام فيفيض بين حناياهن الوجد والظمأ الذي لا يرويه ماء فيخفين دموعهن التي تسيل وهن ينشدن ترانيم بدت له رثاء لحالهن ولأعمارهن التي تمضي ولأرواحهن وقلوبهن التي جفت من الوحدة.

وفي صباح أحد الأيام بينما كان يتمشّى على الشاطئ أرسلت الزعيمة في طلبه وعندما حضر إلى مجلسها أخبرته أنه الذكر الوحيد الذي يرونه منذ سنوات طويلة، وحكت له كيف أن نساء القبيلة أصبحن يقمن بكل أعمال الرجال وطلبت منه أن يبق معهن لفترة ما، وأخبرته أنها سوف تمنحه مركبا يعود بها إلى موطنه بشرط أن يتزوج واحدة منهن ولن يغادر

حتى تنجب ذكرا.

-سوف نقترع ونرى من ستكون زوجتك.

في ساحة الحكم حضر الجميع وتم الاقتراع، وقع الاختيار على واحدة منهن أشارت له الزعيمة عليها، ما إن رآها حتى أصابه الغثيان، وكاد أن يقع مغشيا عليه؛ فقد كانت أقبح نساء القبيلة ولم يتمالك نفسه فأخذ يجري ويصرخ وهن يلاحقنه حتى انقطع نفسه ووقع على الأرض.

-أستاذ سعيد، أستاذ سعيد، خير أنت نمت وبتحلم كمان، يا ترى مين بطل روايتك هذه المرة؟

قالها النادل وهو يقهقه بينما يحاول إيقاظه بعد أن كان يهذي وقد غلبه النعاس فوق الأوراق التي كان يكتب فيها على طاولة المقهى الذي اعتاد الجلوس عليه كلما هَمّ بكتابة أحداث روايته الجديدة.

الانتقام اللذيذ

وصلتُ إلى الشركة مبكرا، أول من قابلته عم رجب عامل البوفيه الذي تساءل عن سر هذا النشاط فأخبرته أن لدينا اجتماعا مهما اليوم، وطلبت منه فنجان قهوة، الحقيقة إنني لم أنم ليلة أمس؛ فقد كنت أفكر في خطة عزمت أن أنفذها في اجتماع اليوم الذي سوف نعرض خلاله مشروعنا على مجلس الإدارة.

قضينا شهورا طويلة نعمل عليه أنا وزميلتي مريم صاحبة فكرة هذا المشروع. هي دائما مجتهدة وتأتي بأفكار خارج الصندوق، ولكنها تنقصها الجرأة، فهي هادئة ورقيقة ولا تحب الدخول في صراعات، قد تقع في هَنة بسيطة فتثور عليها رئيستها وتكيل لها التقريع الذي تتلقاه في صمت دون أن تدافع عن نفسها، وكثيرا ما رأيت الدموع تسكن عيونها في كل مرة، وأنا أنظر إليها أريد أن أصرخ لها بأن تثور وأن تكسر حاجز الخوف لديها كما فعلتُ وثرتُ على ابن صاحب الشركة في عملي السابق الذي كان يلقي على كاهلي بكل العمل دون أن ألق أي تقدير منهم فكان قرار الاستقالة لذلك، فأنا أكره الظلم وأشعر أنني أتجرع مرارته دفقات في حلقي إذا ما رأيت مظلوما، خنوع مريم واستكانتها هو ما جعل رئيسة القسم الذي نعمل به تسرق مجهودها وتتصدر المشهد على أنها صاحبة أفكار المشروعات التي تقدمها وتحصد الثناء عليها.

سوزي زميلتنا المدللة التي تلعب على حبل قرابتها لمدير الشركة، نحن نفكر ونخطط وننفذ وتأتي هي لتأخذها جاهزة وتعرضها خلال الاجتماعات ونقف نحن نتفرج وثمرة أفكارنا تجنيها تلك المغرورة. ولكن اليوم لن أدعها تهنأ بتلك السرقة وسوف يعرف الجميع أنني ومريم أصحاب هذا المشروع الحقيقيين.

وصلت مريم وذهبنا معا إلى غرفة الاجتماعات؛ حيث كان الجميع في مقاعدهم حول طاولة الاجتماعات البيضاوية الضخمة بانتظار وصول المدير، وكانت سوزي تجلس في الكرسي على اليسار منتفخة الأوداج تضع ساقا على الأخرى، بينما جلست أنا ومريم في نهاية الطاولة، دقائق ثم وصل المدير وقامت سوزي منفوشة الريش ووقفت أمام شاشة العرض التي أضاءت بتفاصيل المشروع وكان عليها أن تشرح ما يظهر على الشاشة، وما إن بدأت بالشرح حتى توقفت الشاشة عن العمل، ارتبكت سوزي ووقفت وكأن القطة قد ابتلعت لسانها لا تدري ما تقول، فهي لا علم لها بتفاصيل المشروع فتلجلجت وبدأت تتصبب عرقا، كانت نظرات الجميع مصوبة نحوها، ومر الوقت كالسلحفاة بينما تقف كالبلهاء في منتصف الغرفة.

حاولت أن أكتم ضحكاتي وأنا أشكر الراحل أحمد زكي الذي أوحى إليّ بفكرة هذا الانتقام في إحدى أعماله الفنية، ثم نظرت إلى خارج القاعة عبر زجاج النافذة لأجد عم رجب يشير لي بعلامة النصر، وهنا نهضت وأخبرتهم أن مريم هي صاحبة فكرة المشروع ويمكنها أن تتولى ذكر تفاصيله،

ونظرت إلى مريم وشجعتها لكي تنهض وتقوم بالشرح، بعد تردد قامت وبدأت الكلام بكل ثقة وكان الجميع ينظر إليها مبهورين من تمكنها وسلاسة شرحها ،وما إن انتهت حتى دوت القاعة بطوفان من التصفيق الحاد، نظرت إليّ وهي تداري دمعة فرّت من عينيها ثم ارتسمت السعادة على وجهها واتسعت ضحكتها عندما ابتسمت لها، في تلك اللحظة شعرت وكأنني أرى مريم لأول مرة، ارتفع رأسها فظهر بياض وجهها المستدير وملامحها المنمنمة وأضفى الانتصار لمعة وبريقا إلى عينيها الواسعتين التي يغار منها الليل.

أبواب السماء

استيقظت اليوم مبكرا كالعادة أحاول أن أتخلص من بعض الشعور بالكسل ربما بسبب أنني استغرقت وقتا قبل الخلود للنوم ليلة أمس ،سمعت زقزقة العصافير بالخارج، كانت قادرة على أن تجعلني أنهض بسرعة وأذهب إلى الشرفة أزيح الستائر وأفتح الباب، هبت نسمات رقيقة على وجهي استقبلتها بترحاب وتركتها تتسلل داخل أنفي ليملأني شعور بالانتعاش، تركت الباب مفتوحا وذهبت.

بعد أن انتهيت من روتين ما بعد الاستيقاظ أعددت كوبا من الشاى وجلست في مكاني المفضل بالشرفة، أحب هذا المكان المطل على الشارع في هذا التوقيت المبكر لأسرق بعض نسمات الهواء النقية التي لم تلوثها أنفاس المارة بعد. أتطلع إلى أوراق الشجرة الوارفة التي تتدلى بعض أغصانها في شرفتنا، غرسناها أمام المنزل في بداية انتقالي للسكن في هذه الشقة.

يتقلب مظهرها مابين الفصول، هذه الأيام من شهر يونيو تكسوها الأزهار الحمراء التي تحجب الرؤية بعض الشيء، تجولت ببصري في الاتجاه الآخر من بين الفتحات التي سمحت لنا بها أغصان الشجرة رأيت في شرفة العمارة المقابلة زوجين يبدوان من شعرهما الأبيض وجسدهما النحيل أنهما في أواخر الستينات من العمر يجلسان متقابلين يرتشفان القهوة ويتبادلان أطراف الحديث ويتخلل حديثهما بعض الضحكات الرائقة

بطعم العشرة والسنوات الطويلة التي جمعتهما، وجدت نفسي دون أن أدري أفكر: ترُى كيف التقيا أول مرة؟ هل كان زواجا تقليديا أم بعد قصة حب؟في تلك اللحظة عادت بي الذاكرة إلى أحد أيام الصيف الحارة في التسعينيات، كنت أجلس أمام أحد الفصول في المدرسة التي كنت أعمل بها، وضعت المقعد أمام الفصل هربا من الجو الحار داخله، انضم إليَّ الأستاذ «علي» مدرس العلوم، توسّد مقعدا أمامي بجسده الضخم، كان دائما ما يحدثنا عن شخصيات من البلدة يصفها بأنها «نحتت في الصخر»، وتحدت ظروف القرية المنغلقة وخرجت إلى براح المدينة ونجحت في شق طريقها

هذه المرة حدثني عن «سامي» ابن قريته الذي أنهى تعليمه والتحق بوظيفة مرموقة في مؤسسة كبرى، استرسل في سرد صفاته ومناقبه استطاع أن يجذبني إليه رغما عني، وبينما هو مسترسل في حكيه شعرت وكأن هناك رابطا ما يربطني بسامي وشعرت وكأن أبواب السماء مفتوحة الآن وكان شعورا غريبا يدفعني لأن أتمنى في داخلي أن أتعرف عليه بل أن أرتبط به، ولكن كيف وهو يقيم في القاهرة ولا يعرفني؟

وأنا مستغرقة في ذكرياتي هنا انتبهت على لمسة حانية تربّت على كتفي وأنا في شرفة منزلي أرفع فنجان الشاي أمام فمي وأنظر إلى الزوجين في الشرفة المقابلة، كانت يد «سامي» يخبرني أن «عمرو» ابننا استيقظ من نومه.

ابنة القمر

كانت مثل خفاش ليليّ يدب النشاط في جسدها عندما يرخي الليل سدوله وعندما تلتحف السماء بالسواد. تعيش داخل غرفتها ذات النافذة الواحدة التي تطل على حديقة وارفة الأشجار تكسوها الخضرة والأزهار الجميلة، هكذا وصفوها لها، زجاج النافذة معتم وعلى الزجاج ستارة سميكة مانعة للضوء، النافذة مغلقة والستائر مسدلة لا تفُتح أبدا إلا عندما يحل الظلام.

30 عاما قضتها «سيرين» داخل هذا المكان لا تغادره إلا في المساء، لم تذهب إلى المدرسة مثل رفيقاتها، ولكنها تلقت تعليمها كله داخل هذه الغرفة.

واليوم يختلف عن كل أيام حياتها فهو يوم تحصد فيه جهد سنوات طويلة تجرعت خلالها الحرمان كؤوسا تترا، فقد تغلبت سيرين على عزلتها وعلى عتمة أيامها التي تسلل نور العلم إليها ولم يحرقها، وها هي رغم كل معاناتها سوف تناقش «سيرين» اليوم رسالتها لنيل درجة الدكتوراه.

استيقظت وهي تشعر بطاقة من النشاط كبيرة، وبدأت تستعد، فتحت خزانتها لتختار فستانا يليق بهذه المناسبة العظيمة، اختارت فستانا أصفر لطالما كان لونها المفضل، وقفت تتأمل نفسها بالفستان أمام المرآة، سيل من الذكريات تداعى أمام مخيلتها .

تتذكر كيف عاشت حياتها بين جدران هذه الغرفة وكم تمنت أن تغادرها لتنضم لرفيقاتها وهن يلهون في الخارج ويصلها صوت ضحكاتهن وهن يجرين هنا وهناك في سعادة بينما هي مكبلة بهذا الجسد الذي حرمها أن تحيا طفولتها وصباها، عندما يأتي المساء تخرج إلى الحديقة خارج المنزل، تجلس وحيدة، تنظر إلى أماكن لعب صديقاتها بينما يعتصر الحزن قلبها وكيف أن كل ما تستطيعه فقط أن تجلس شاخصة ببصرها إلى السماء محدقة في القمر الذي يتغنى به الشعراء، ولكن الحقيقة أنها تكرهه كما لم تكره شيئا قط، وكم تمنت أن يسقط من السماء ويتفتت شظايا برغم أنها «ابنة القمر» كما قال لها الطبيب!!

-كم كانت الرحلة طويلة مرهقة! (همست) .

أفاقت من شرودها على صوت شقيقتها يأتيها من الطابق الأسفل لكي تنتهي من ارتداء ملابسها وتهبط إليهم فالجميع بانتظارها. اليوم حينما تتوجه إلى الجامعة لمناقشة رسالتها عليها أن ترتدي قناعها الواقي من الأشعة؛ فهي لأول مرة تخرج نهارا ولا بد أن تأخذ احتياطاتها الشديدة حتى لا تحرقها أشعة الشمس.

هبطت إليهم وخرجوا جميعا لاستقلال السيارة المظلمة تماما والتي أسدلت ستائر نوافذها. تصل إلى الجامعة وتدخل القاعة المخصصة للمناقشة، كانت واسعة وجدرانها عالية مزينة بزخارف بارزة، ويتدلى من سقفها نجفة كبيرة تتدلى منها قطع كريستالية فخمة، رصت المقاعد فيها

حتى احتلت نصف مساحتها وفي جوانبها وضعت باقات الزهور الضخمة وأسدلت الستائر المعتمة على نوافذها أيضا.

اتخذت مقعدها أمام المنصة المخصصة لجلوس أعضاء لجنة المناقشة وبعد أن حضر الجميع وبدأت المناقشة انهالت عليها الأسئلة، ولكنها كانت جاهزة بالرد عليها جميعها ولم تجد اللجنة إلا أن تمنحها درجة الدكتوراه بامتياز.

صفق الجميع ووقفت سيرين في زهو فخورة بما حققته من إنجاز عظيم يحيط بها أهلها، ولكنها بدت شاردة الذهن تجول بنظراتها على الجميع وكأنها تريد أن تحفر ملامحهم على مآقيها التي بدا من ارتجافهما أن شيئا آخر يشغل بالها،نعم فما زال الحلم الأكبر لم يتحقق بعد، وقد عقدت العزم على أن تحققه اليوم، انسلّت من بين المهنئين وفي خطوات واثقة مرفوعة الرأس سارت بعد أن نزعت القناع عن وجهها، بهُت الجميع عندما رأوها تقترب من الباب وفي صوت واحد صرخوا:

- لا،أرجوكِ،لا تفعلي.

ولكنها استمرت في السير غير عابئة بصياحهم وقد نجحت أن تفلت جسدها من بين أكف أمها التي أطبقت عليها لتمنعها، شقت طريقها نحو الباب وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة وتهلل وجهها وهي تتخيل نفسها تحدق ببصرها نحو قرص الشمس لأول مرة دون خوف، وتلتقط بيديها خيوط أشعتها لتغزل سلما تصعد به إلى السماء

نحو الحرية؛ حيث لا ألم بعدها .

حينما أمسكت مقبض الباب بيدها أدارت رأسها وحانت منها التفاتة أخيرة ونظرت لهم نظرات حُبلى بمعانٍ كثيرة وكأنها أرادت أن تطمئنهم أنها الآن فقط ستكون بخير؛ لأنها على بعد خطوة واحدة من تحقيق حلمها الأكبر أن تكون «ابنة الشمس.»

جناحان

أخبرها الطبيب بحملها بعد سنين طويلة جدباء أوصلتها حد الاكتئاب الشديد، رفرف قلبها فرحا، تمنت أن يحمل جنينها ملامح والده ببشرته الخمرية وعيونه الخضراء، في الشهر الخامس أقاما احتفالا جمعا فيه الأهل والأصدقاء للكشف عن جنس المولود، في صالة المنزل علقت الزينة والبالونات الوردية والزرقاء على الجدران، بعد أن اكتمل الحضور بدأ الحفل بأن تناوبت وزوجها فرقعة البالونات واحدة تلو الأخرى حتى أفرغت بالونة زرقاء ما بداخلها معلنة جنس المولود، مرت شهور الحمل بسلام، ولكن كلما كبر حملها، كانت تزداد خوفا وقلقا من لحظة الولادة حتى أصبحت تلك اللحظة هاجسا يحزن يومها ويؤرق نومها فأصبحت تنتابها نوبات من الهلع والكثير من الكوابيس التي أفسدت مضجعها .

وفي ليلة من ليالي شهر يناير الباردة فاجأها آلام المخاض وأقبل وليدها إلى الدنيا، بعد أن خرج الطبيب من حجرة الولادة قال كلمات مقتضبة عن أن الأم والمولود بخير، ثم أخرجوها ووليدها إلى غرفتها، أسرع زوجها متلهفا ليطمئن عليها، طبع قبلة على جبينها وهي نائمة، ثم حمل طفله الرضيع ليؤذن في أذنيه كما توصي السُّنَّة، ما إن كشف عن وجه الرضيع حتى انطفأت الفرحة في عينيه اللتين جحظتا هلعا، وشعر نفسه فوق ظهر مركب وسط بحر متلاطم الأمواج؛ فقد كان الطفل مولودا بتشوه في

وجهه، حاول أن يبتلع وجعه في صمت، ثم هدأت نفسه قليلا بعد أن أخبره الطبيب:

-إن إصلاحه أمر بسيط.

وكل ما كان يخشاه هو ردة فعل زوجته وقد حدث، فما إن أفاقت وطلبت رؤية الرضيع وأعطوه لها حتى صرخت ولطمت وجهها حتى تركت أصابعها آثارها على وجنتيها، وكالت اللكمات إلى بطنها تلومها؛ لأنها لم تخبرها عن حاله.

منذ تلك اللحظة لم تعد كما كانت، غصة سكنت ما بين الضلوع ،ومشاعر حزن دفين تراكمت بداخلها وأخذت تزداد يوما بعد يوم، يفزعها صوت صراخه، حين يقرصه الجوع تلقمه صدرها، سحابة سوداء تغمرها وتطبق عل أنفاسها حين ترى اللبن يتدفق من بين فكه المشقوق وشفاهه المنفلقة بعد أن عجز عن ابتلاعه وهي مكبلة مكلومة تقتلها قلة الحيلة.

انزوت داخل نفسها لا تريد مغادرة سريرها، ازداد اكتئابها، وفقدت رغبتها في كل شيء بعد أن فشلت في إرضاع وليدها حتى جف لبنها .أدرك زوجها أن بها خطبًا ما حين رآها تصم أذنيها هربا من صراخ الصغير وأصبحت ترفض أن تغير ملابسها، وتهذي بكلمات غير مفهومة، وبعد أن رآها يوما تقف بجوار النافذة تحرك ذراعيها كالطيور.

عادت لبعض طبيعتها بعد أن وصف لها الطبيب بعض الأدوية، ولكنها أيام قليلة حتى عادت أسوأ مما كانت؛ فقد رآها مرة أخرى أمام النافذة تقلد

أصوات العصافير وهي تحرك ذراعيها لأعلى وأسفل.

وفي ذلك الصباح البارد الذي توارت فيه الشمس خلف ندف السحاب البيضاء الكثيفة، عاود الطفل صراخه الذي تحول إلى ضجيج بعد أن تسللت واعتلت سطح المنزل وما زال صوته هادرا في أذنيها بينما كانت تقف شاخصة إلى السماء وتصدر أصوات زقزقة عالية تعقبها ضحكات متتالية، توقفت برهة وبعيون شاردة أخذت تتحسس موضع ذراعيها رأت جناحين صغيرين يغطيهما الزغب الأصفر قد نميا مكانهما، أطالت النظر مشدوهة فإذا بهما يتمددان ويكبران حتى كساهما ريش أبيض واستحالا إلى جناحي طائر عظيم، انتفضت، حركتهما بشدة، اقتربت من حافة البناء ،أطلقت ساقيها وجناحيها للريح، طارت وبعد دقيقة انتبهت نظرت إلى جناحيها لم ترهما لكنها استمرت في تحريكهما وواصلت الطيران إلى أسفل.

صرخة تدوي وصوت ينعي: ماتت آمال وتركت الصغار. الأربعون تنقضي والأم الثكلى تفكر ثم تقرر:

-أنت أولى بأبناء أختك. (قالت لها).

ألجمتها الصدمة ثم ثار بركان مشاعرها المكلومة فصرخت وقالت:

-لن أفعل؛ فأنا لا أراه سوى أخي، والصغار سوف أرعاهم والموت أهون عليَّ من أن أدخل فراش أختي.

نظرت إلى عينَيْ أمها تستعطفها لكنها رأت امرأة أخرى لا تعرفها لها نظرات متجمدة وعيون من صخر.

تصدح الموسيقى في قاعة العرس وترتسم السعادة على وجوه الحاضرين إلا تلك المرأة الستينية الجالسة على الطاولة في المنتصف المتشحة بالسواد ،ترمي نظراتها الوجلة إلى تلك المتسربلة بلباس العروس، وتداري بخار روحها المتألمة الذي طفا وبلل وجهها الممتقع، تتلظى بنيران الحزن والحسرة وهي ترى امرأة أخرى تسكن فراش ابنتها الشابة حتى وإن كانت أختها، ثم حسرتها على أحلام صغيرتها التي دفنتها لتربي أبناء شقيقتها، وها هي رجاء تجلس في الكوشة صامتة تتصاعد أنفاسها خلف حركة عينيها المضطربة وكأنها على وشك الانفجار وهي تتساءل:

-هل من العدل أن تكون أحلامي الموءودة هي الثمن من

أجل أن يحيا أبناء أختي؟

كانت تستعد للزواج بمن أحبّت، وبعد أن أتموا كل شيء وتحدد موعد الفرح ماتت أختها فجأة، تركت ثلاثة أبناء: الكبرى في الثانوية وتوأم من ولد وبنت في الخامسة من عمرهما.

اتخذت الطبيبة مقعدها في صدر الدائرة التي تكونت من مجموعة من المرضى الذين تباشر علاجهم بجلسات العلاج الجماعي، رحّبت الطبيبة بالجميع ثم نظرت إلى السيدة الجالسة على يمينها قبل أن تقول:

-انضمت إلينا ولأول مرة عضوة جديدة تقيم هنا منذ شهرين، واليوم فقط أبدت استعدادا لأن تنضم إلى جلساتنا وأريدها أن تكون أول من يتحدث. (ثم أشارت لها بيدها أن تفضلي).

كانت سيدة في منصف الأربعينات من العمر، نحيلة، شاحبة الوجه ،تحيط عينيها هالات حالكة السواد. كان التوتر يبدو جليا عليها وهي جالسة تضم ساقيها إلى بعضهما بقوة وتستند بساعديها عليهما وقد عقدت كفيها، من فرط ارتباكها وتوترها يكاد الجالس بجوارها يسمع طقطقة عظام ساقيها اللتين تصطكان ببعضهما وهما ترتعشان.

ساد الصمت برهة في انتظار أن تتحدث، بدا من ارتعاشة صوتها أنها استجمعت كل طاقتها لكي تنطق بأول كلمة، ثم بدت منها تنهيدة قوية وكأن حِملا ثقيلا يوشك أن ينزاح عن صدرها وهي تقول:

-تخليت عن عملي من أجل رعايتهم، كنت أصحبهم إلى مدارسهم ثم

أعود لأتفنن في صنع ما يحبون من أصناف الطعام، أوفر لهم الهدوء اللازم للمذاكرة، مَنْ يمرض منهم أسهر الليل بجانبه ولا يغمض لي جفن حتى أطمئن على سلامته، أما الابنة الكبرى فكانت صديقتي نجلس معا آخر النهار وتعد لنا مشروبا تصر أن تعده بنفسها ونجلس في الشرفة نحتسيه ونحن نتبادل الحديث والفضفضة. إلى أن مرض زوجي ورحل سريعا، ترك لنا ثروة كبيرة تكفي لأن نعيش جميعنا في رغد، ولكن وفي صبيحة يوم أسود وقف الأبناء وطلبوا مني مغادرة المنزل؛ لأن مال أبيهم لهم وأنكروا حقي فيه، وقفت مذهولة لا أصدق ما أسمع وأرى، انهالوا عليَّ طعنا بألسنتهم وكأني غريبة عنهم، شعرت وكأني أراهم لأول مرة.

كانت الصدمة أكبر من احتمالي ولم أنطق بكلمة واحدة، فقط وقفت صامتة مذهولة إلى أن قالت الابنة الكبرى: إنها كانت تدس لي حبوب منع الحمل في الشاي الذي كانت تعده لي وأحتسيه معها في الشرفة .

هنا خارت قواي وغبت عن الوعي، وعندما أفقت كنت هنا ممددة على سرير في إحدى غرف هذه المصحة أعاني من انهيار عصبي .

هنا باغتها أحد الحضور قائلا:

-من أنت؟

- اسِمي رجاء.

مطاردة

يملأ الضجيج رأسه رغم طول يومه ورتابة ساعاته وصمت القبور المطبق على الجدران من حوله، تنفلت منه بين حين وآخر عبارات تفضح ذكرياته الآثمة وتفشي أسرار الصراع الذي يدور في رأسه، تراه فجأة يحدق في الفراغ، يحدث نفسه، ويصرخ:

-أما آن لذلك الكابوس أن ينتهي ولتلك الأشباح أن تكف عن ملاحقتي حتى أصبحت أهرب من النوم؟ سنوات وهي تطاردني في صحوي ونومي ماذا فعلت لأستحق كل ذلك؟ ما هذا النكران للجميل؟ لقد كنت أحاول أن أساعدهم. أنت أيها الشاب ألم تكن في ضيق شديد وأزمة كبيرة وحلّلتها لك بعد أن دفع لك ذلك الثري مبلغا كبيرا من المال مقابل كليتك .وأنت أيها الرجل الكهل أنا لم أسرق كليتك، لقد كنتَ مريضا وعلى بعد خطوات من الموت فمنحتُها لشاب يحتاجها.

مدَّ بصره ونظر في الجانب الآخر يحدث طيف شابة نحيلة بشعر أشعث وعينين حمراوين تحمل طفلا يصرخ، فأشار ملوحا بيده في عصبية:

-وأنت أيتها السيدة لقد منحتُ طفلك لأسرة غنية لا تنُجب، وفّرت له حياة سعيدة رغدة بعد أن رأيت كيف تعيشين في فقر مدقع، وقد منحك الله توأما لم تكوني لتقدري على الإنفاق عليهما.

وبعد أن تخور قواه يجلس على الأرض متكورا كمن يحاول أن يحمي

نفسه من هجوم الأطياف التي يراها تحوم حوله وتحاول الفتك به. ولكنه ما إن يأتي الصباح حتى يطرد هذه الأطياف ويبدأ في مزاولة عمله مرة أخرى.

الغريب

كانت الأجواء ربيعية في قريتنا الصغيرة على الحدود، تزينت الأرض واكتست بثوبها الأخضر على امتداد الأفق، تتوسط الشمس السماء وترسل أشعتها الهادئة لتنشر النشاط في ربوعها. وأنا أجلس تحت ظل الشجرة أتابع من بعيد قطيع الأغنام التي تمرح فوق التلال وتأكل الكلأ حيث اعتادت ذلك كل صباح.

قبل نهاية اليوم لمحته من بعيد مقبلا نحوي يتهادى في ملابسه العسكرية بقوامه الممشوق، حينما اقترب مني سألني عن أحد رجال القرية؛ فأجبته بتلعثم وأسرعت مبتعدة، جذبتني عيونه الحوراء التي كانت محملة بمشاعر ودّ وكأنه يعرفني منذ زمن.

في الأيام التالية كنت ألمحه يراقبني من بعيد حتى كان يوما اصطدمت سيارته العسكرية بأحد أغنامي، بعدها جاء إلى المنزل معتذرا لوالدي الذي علم منه أنه يقضي فترة التجنيد في قريتنا. تمضى الأيام وألمحه يراقبني في صمت، ولكن هناك شيء ما ينمو ويكبر بيننا حتى فاض وعجز عن كتمانه، تشجع وأخبرني به بعد أن تخفّى خلف الشجرة التي أستظل بها ،ارتعدت أطرافي وتلونت وجنتاي بحمرة الخجل وأسرعت بعيدا .

بعد أيام رأيت أبي ثائرا كما لم يثر من قبل، تلفظ عيناه الحمم من حوله وهو يخبر أمي أن ذاك الغريب تجرأ وطلب يدي وأن ذلك سبة في جبينه

أمام رجال القبيلة التي تبور بناتها ولا تزوجها لغريب، اشتعلت النيران في صدري وأنا أقف عاجزة تشوي النيران مشاعري الوليدة، وخيطت شفاهي بخيوط من نار صكت في نهايتها بقفل ضخم اسمه التقاليد لطالما كرهت تلك القيود، ولكن هذه المرة لن أقف ساكنة وقد حان الوقت لأنتزع سعادتي من بين أنيابها .

في عتمة الليل تسللنا ورحلنا إلى مدينته، تزوجنا وعشت معه ملكة متوجة على عرش حياته، لا يعكر صفو بحر أيامنا الهادئ سوى افتقادي لأمي، مرت 10 سنوات من السعادة الخالصة.

اليوم صحوت وأنا أغالب شعورا غامضا، تجاهلته ورسمت البسمة على وجهي وأنا أعد طعام الإفطار لزوجي وأبنائي قبل أن يذهبوا إلى مدارسهم ،بعد انصرافهم وقفت أنظف الأطباق وأفكر فيما سأعده لهم من طعام للغداء، ولكن ذلك الشعور يعود ليقتحم خلوتي ولا يتركني، ينغص عليَّ سعادتي شعور الحنين إلى أمي الذي كلما غلبني يجتاحني حزن غريب وسؤال واحد يتملكني:

-هل أستحق السعادة التي أعيشها على أنقاض سعادة أمي وإخوتي بعد هروبي وزواجي دون رضاهم.

البحث عن السعادة

في ذلك الصباح الشتوي بينما أجلس داخل المقهى ممسكا بفنجان قهوتي أهم باحتساء أول رشفة منه وأمد نظري خارج الجدار الزجاجي للمقهى متأملا تساقط الأمطار وتشبث حباته لحظة انزلاقها ببطء على الجدران الزجاجية، هائما في ذلك الغبش الرمادي الذي يلف السماء والشوارع.

فجأة تسمرت عيناي على باب المقهى؛ إذ يفُتح وتدلف منه بسرعة تلك السيدة الأربعينية، تطوي مظلتها ثم تمسك بيد صبي يحمل ملامحها ويسيران ببطء نحو إحدى الطاولات في ركن قصيّ من المقهى، أعدت النظر إليها فتأكد شعوري بأنني أعرفها .

- يا إلهي، إنها هي .

كيف تبدل حالها فبدت هكذا تطل من عينيها روح عجوز؟ كيف فقدت توهجها؟ أين ذهبت أناقتها فارتدت تلك الثياب الباهتة بلون أيامها؟ تأملتها في صمت، لم أكن أعلم أن إحساسي بها ما زال حيا بعد كل تلك السنين، انتابني خليط من المشاعر المرتبكة، لا أدري هل هو اشتياق أم شماتة؟

وهي تشير للنادل هاجمتني الذكريات، وارتسمت أمام عينيَّ تلك المشاهد المتسارعة كشريط السينما، كان المشهد مقبضا أتذوق مرارته الآن في فمي ،أقف منهارا أترجاها أن تبق بينما هي تلملم أغراضها لتهدم هذا البيت

الذي طالما حلمنا أن يجمعنا معا وبنيناه قطعة قطعة ولوّنت كل ركن فيه ألوان مشاعرنا البريئة.

عشر سنوات قضيناها معا، كانت لي هي الحياة بما حوت ضحكاتنا وأوقاتنا السعيدة أضاءت كل ركن في عشنا الصغير، الذي خلا من العصافير ،كلما مر عام كنت أراها تزوي وتذبل، ويقل بريق عينيها رويدا رويدا حتى بحثت عنه يوما ولم أره.

ذهبنا إلى الأطباء أخبروها أن تبحث عن زوج آخر لكي تشبع غريزة الأمومة، ظلت صامدة تغمرني بحبها وتخفف عني نوبات الحزن التي كانت تضربني، حتى كانت تلك الليلة وقفت أمامي بوجه تاهت ملامحه عني ،وعيون لم أعد أرى صورتي فيها لتخبرني: إنها قررت الرحيل.

اليوم أراها بعد عشر سنوات، تمسك بيدها حلمها الذي تحقق، أدقق النظر في وجهها المتغضن ومآقيها المنطفئة، أتعجب كيف أن ذلك الحلم لم يستطع أن يعيد إليها دبيب الحياة وإشراقة وجهها ويجعل مصابيحه تضيء من جديد!! بينما أنا كذلك انتبهت إلى صوت زوجتي التي تقف أمامي وتخبرني أننا جاهزون للمغادرة بعد أن غسلت أيدي ابني الذي لطخ فمه ويديه بالحلوى .

القرار الأخير

يمر الوقت بطيئا مملا وأنا أقبع منذ زمن في هذا الرقود المقيت، حين صحبتني معها إلى هنا، كانت الحياة تسير على وتيرة واحدة، سيدة ثلاثينية تعيش مع زوجها وطفليها الصغيرين، تحمل ملامح وجهها بقايا جمال خبا تحت وطأة الشقاء وعلامات شاهدة على كل خلاف مع زوجها الذي يكبرها بعشرة أعوام، زواج تقليدي جمع بينهما فهو زميلها الذي يعمل معها في نفس المستشفى ممرضا مثلها، بدأت طباعه السيئة تتكشف لها واحدة تلو الأخرى في الشهور الأولى بعد الزواج، مدمن مخدرات وكحول، استمرأ نقودها، يجلس في البيت بلا عمل حتى تم فصله، يأخذ مرتبها وينفقه على مزاجه المكدس بكل الموبقات، عجزت عن رده عن الطريق الذي يسير فيه حتى بعد أن أنجبت توأما، وكل محاولة منها تنتهي بتكومها على الأرض وهي على حافة الهلاك.

أتعجّب إلى متى سوف تحتمل؟ أسمعها ترجوه أن يفيق من أجل أولاده الصغار، ولكنه أصبح جسدا خاويا ككتلة من الأسمنت يعذبها بسياط لسانه البذيء ويده القوية. منذ قليل سمعتهما يتشاجران وكانت تصرخ وهي ترجوه أن يتركها تخرج وتحمل الصغير إلى الطبيب فهو مريض جدا ولم أسمع بعدها سوى صوت صراخ مكتوم وكأنه يحاول أن يكتم أنفاسها.

يا إلهي، أسمع صوتها الآن تصرخ من جديد وصوت أقدامها يقترب

،أراها الآن بوضوح تدلف إلى المطبخ مشعثة الشعر ممزقة الملابس، تغطي الدماء وجهها، وها هو ذلك الوحش يطاردها، يكيل لها البذاءات، يحاول أن يمسك بها ليكمل على ما تبق بها من قوة وهي تلف وتدور حول طاولة المطبخ المستديرة، تنظر إليه وكأنها شدت خيط ذكرياتها الشقية فتدحرجت خلف بعضها في مخيلتها فرأت كل الشقاء الذي كابدته معه ،تتذكر، تتحجر عيناها وتكف عن الدوران في هذه اللحظة أخذت قرارها ،أشعر بأنفاسها تعلو وهي تقترب مني، تفتح الدرج تمد يدها بداخله تمسك بي تستلني من بين الملاعق والأشواك وترفعني إلى أعلى، تقترب منه مهددة ،يسخر منها يهجم عليها، يشد يدها يشتبكان، يتمكن من يدها يسحبها لأسفل لأنحشر بين جسديهما، أنغرس داخل كومة من اللحم أشقها برأسي ،أخترق العظم، أستقر في كتلة لحم أخرى بعد أن نفذت من بين الضلوع ،تهزني صرخة قوية، تفلتني اليد، يتهاوى الجسد الذي يحملني على الأرض ،يرتعش بقوة ثم يهدأ وتتوقف الأطراف عن الحركة، يسكن تماما تسري برودة شديدة في أوصاله أشعر بها، بينما أراه واقفا يترنح، يحمل زجاجة الخمر ويرفعها على فمه بيده المخضبة بالدماء ولا يهتز له جفن.

بيت على جانب الطريق

كان يريد أن ينتهي من كتابة آخر مشاهد الفيلم الجديد، أتته الأفكار عاصفة، في البداية أحضر الورق وأمسك القلم، ولكنها فجأة طارت وتبخرت وعاد اللون الأبيض يطغى على مخيلته والأفكار تأبى أن تأتي، نفخ دخان سيجارته بحنق ثم رمى بها على الأرض، اختفى الهواء من محيطة رويدا رويدا حتى كاد أن يختنق، انتصب مفزوعا، أخذ مفاتيح سيارته وقادها في عتمة الليل لا يعرف إلى أين، ولكنه وصل إلى مشارف غابة كثيفة، سار قليلا في طريق غير ممهد يقود إلى داخل الغابة.

-اللعنة .

صرخ مع صوت زمجرة شديد لفرامل السيارة ولفّته سحابة ترابية كثيفة؛ فقد توقف فجأة ليتفادى الاصطدام بشجرة كبيرة ملقاة في منتصف الطريق، ترجّل من السيارة وسار عدة أمتار ولاح له من بعيد طيف بيت على جانب الطريق تظلله الأشجار اتضحت معالمه حين وصل إليه، كان بيتا من الخشب ترُك بدون طلاء فأخذ لون الخشب البني، ارتق الدرجات الثلاث في مدخله وطرق الباب لكن لم يجبه أحد، كان مفتوحا دفعه ودخل، اشتمّ رائحة الموت الممتزجة برائحة الخشب العطنة، تسارعت نبضاته حينما رأى الظلام حالكا بالداخل، أخرج هاتفه وأضاء المصباح، لم يجد شيئا داخل البهو الواسع سوى بعض الأثاث الذي تكوم في أحد أركانه

وهو مغطى بقماش اختفى لونه تحت طبقة من الأتربة وخيوط العنكبوت ترتع في جوانب السقف.كان بيتا مهجورا، نظر حوله ليستكشف تفاصيل البهو، كانت تغطى جدرانه بعض رؤوس الحيوانات، وعلى الجانب الأيسر قطعة من جلد النمر علقت بعرض الجدار، شعر بقشعريرة في جسده عندما نظر إلى صورة لفتاة صغيرة معلقة على الحائط في الجانب الأيمن، كانت نظراتها حادة تنم عن شعور ما غير مريح، وهو على تلك الحال يتأمل الصورة سمع صوت خطوات تأتي من الطابق الأعلى ما زالت تقترب فبدا وكأن صوت نبضاته وصوت تلك الخطوات يستبقان حتى توقفت، تحرك برأسه نحو السلم المؤدي إلى الطابق الثاني ذهل عندما رأى فتاة صغيرة ذات شعر قصير ترتدي ملابس بيضاء تقف على الدرج تحدق به ارتعب وشعر كأن ثلوج سيبيريا احتلت عروقه ،وزاد شعوره بالخوف عندما دقق النظر؛ فقد كانت الفتاة هي نفسها التي بالصورة، ازداد رعبا عندما أعاد النظر إلى الصورة المعلقة فوجد ملامحها قد تغيرت وسالت الدموع من عينيها بلون الدم أخذ يصرخ ويجري ورمى نفسه في مقعد السيارة وهو ما زال يصرخ، فجأة انقشع الظلام الحالك ليحل محله ضوء باهر ملأ الكون وكأن الشمس توسطت السماء فجأة وإذا بصوت هادر يصرخ:

-استووووب .

وسيل من اللعنات يوجهها إليه وهو يسأله من يكون؟ وكيف يقتحم موقع التصوير هكذا؟!!

متعة فريدة

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر، رن جرس الهاتف الذي تركه على الكومود بجوار السرير، بعيون نصف مفتوحة رفع الهاتف ووضعه على أذنه .

-آلو .

-كيف حالك يا زياد؟

هب من نومه وجلس متقرفصا ثم قال بصوت تملؤه الفرحة:

-فريدة أين أنت؟

-لقد عدت من لندن بالأمس وأريد أن أتحدث معك في أمر مهم فهل نتقابل اليوم؟

وقبل أن تسمع رده قالت:

-سوف أمر عليك في منزلك الساعة الخامسة، إلى اللقاء .

ثم أغلقت الخط. قفز من السرير بسرعة ونظر في ساعة الهاتف، لم يتبقَّ أمامي وقت طويل، سوف أصارحها بمشاعري، حدّث نفسه وهو يتلقّ باستمتاع زخات مياه الدش الفاترة على جسده، وسوف أعد لها أشهى طبق مكرونة يمكن أن تتذوقه يوما. ارتدى ملابسه وتوجه إلى السوبر ماركت لإحضار الطلبات.

زياد الشاب الثلاثيني يعمل مهندسا، يعيش وحيدا بعد أن رحل والداه

منذ سنوات طويلة، اعتاد بحكم ظروفه على أن يصنع كل شيء لنفسه مجبرا لكن يظل إعداد الطعام هوايته المفضلة حتى أصبح يتفنن في طهو الأطباق المختلفة ويجد متعته الكبرى حينما يدعو الأصدقاء ويطهو لهم ويسعد برؤيتهم وهم يطلقون صيحات الإعجاب بمذاقات أطباقه المتنوعة اللذيذة.

فريدة زميلته في العمل ذات الجمال الأخاذ والملامح الأوروبية التي ورثتها عن والدتها خطفت قلبه منذ رآها في أول يوم لها في العمل، وكلما كان يحاول أن يصارحها بمشاعره يتراجع في اللحظات الأخيرة، ربما لقوّة شخصيتها وجرأتها اللتين كانتا تخيفانه منها أحيانا، ولكنه لن يتراجع اليوم أبدا فقد تأكد أنه لا يملك رفاهية الاستغناء عنها بعد أن اختبر لوعة غيابها خلال الشهر الماضي؛ حيث أرسلتها الشركة في مهمة إلى لندن.

أخرج الطلبات التي اشتراها على رخامة المطبخ، وضع المكرونة، وقطِع البانيه، وكيس الموتزاريلا، واللبن، ارتدى مريلة المطبخ وشرع في الطهي ،بعد أن أدار زر تشغيل الراديو الصغير الذي كانت تحرص والدته على تشغيله وهي تباشر أعمال المنزل، دائما ما كانت تخبره أن طهي الطعام يحتاج إلى مزاج رائق حتى ينعكس على نفسها في الطعام، وكانت تخرج من تحت يدها أشهى الأطباق وهي تستمع إلى الأغاني والموسيقى المنبعثة من هذا الراديو ،ترامى إلى أذنه صوت أم كلثوم تغني:»قابلني والأشواق في عنيه، سلم، سلم وخد ايدي في ايديه، وهمس لي قالي الحق عليه، نسيت ساعتها بعدنا

ليه ،فين دموعي اللي ما نامت ليالي، بابتسامة من عيونه نسّهالي .»

خرجت منه تنهيدة حارة ثم حمل وعاء سلق المكرونة ووضعه على النار في انتظار غليان الماء، ثم شرع في تتبيل قطع البانيه بتتبيلته الخاصة والمميزة بشهادة كل من تذوقها، وتركها جاهزة للقلي داخل الثلاجة، عند الساعة الرابعة كان على وشك البدء في إعداد صينية المكرونة بالبشاميل ،وبدأ في قلي البانيه حتى يكون ساخنا عند وصول فريدة، أعد طاولة الطعام ورصَّ الأطباق وحرص على أن تتوسط المائدة فازة ملأها بزهور البنفسج المفضلة لديها.

عند الساعة الخامسة تماما دق جرس الباب؛ فتعالت دقات قلبه وتسارعت حتى كاد يفر من صدره، تمالك نفسه وفتح الباب، استقبلته بثغر باسم كشف عن خبيئته من اللآلئ، ومدت له يدها بعلبة هدايا أحضرتها له.

-لقد أحضرت لك هدية بسيطة من لندن أتمنى أن تعجبك.

-شكرا، لماذا أتعبت نفسك؟

قالها وهو يداري سعادته العارمة؛ لأنها تذكرته.

-أنا أيضا أعددت لك مفاجأة وطهوت لك اليوم.

جلسا يتناولان الطعام ويتبادلان الحديث، وبينما تتصاعد رائحة الطعام الشهية، وتعزف أدوات المائدة لحن المذاق الرائع فجأة توقفت عن الأكل وقالت:

-ما رأيك في معاذ بيه - مدير الشركة - لقد طلبني للزواج وأردت أن أعرف رأيك به؛ لأنك تعمل معه منذ مدة طويلة وأنا كما تعرف أعمل معه منذ عام فقط.

سقطت أدوات الطعام من يده ولفه صوت صفير مرتفع قطع صوتها عن أذنيه وتحجرت عيناه وغشا الضباب ملامحها، ولم يعد يرى غير شفتيها تتحركان بلا صوت، شعر كأن طوفانا من الثلج قد احتلّ عروقه، شحب وجهه وكادت دموعه تسيل وهو يحاول أن يوقف ارتعاشة أطرافه، ساد صمت طويل إلا من صوت الراديو الآتي من المطبخ يحمل صوت أم كلثوم وهي تغني: «ما تبعدنيش بعيد عنك، ما ليش غير الدموع أحباب معاها بعيش بعيد عنك، بعيد عنك حياتي عذاب.»

الحذاء الآثم

كانت عقارب الساعة تقترب من الرقم ثمانية عندما نادت الممرضة في استراحة العيادة:

-مدام زينة تفضلي الدكتورة بانتظارك.

انتبهت زينة التي كانت تجلس في أحد الأركان في صمت فنهضت وسارت بخطوات متثاقلة وبدا عليها الارتباك وهي تقدم رجِلا وتؤخر أخرى إلى أن وقفت أمام المكتب في حجرة الكشف وألقت التحية على الطبيبة الجالسة خلفه، نظرت إليها الطبيبة نظرة فاحصة اعتادت عليها مع المرضى الذين تقابلهم لأول مرة فهذه النظرة الأولى تكشف لها أشياء كثيرة عن الشخصية التي تقف أمامها ثم طلبت منها بياناتها حتى تحتفظ بها في نوتة صغيرة تضعها أمامها.

-اسمي زينة 55 سنة.

حاولت الطبيبة أن تزيل حالة الرهبة والخوف لديها ثم طلبت منها وهي تشير بيدها إلى الشيزلونج الموجود بمنتصف الحجرة أن تسترخى فوقه .تمددت زينة على الشيزلونج وجلست الطبيبة على كرسي بجوارها وأدارت جهاز التسجيل. أخذت زينة نفسا عميقا وقالت:

- أريد أن أنسى كل حياتي الماضية معه، ولكن تهاجمني الذكريات الحارقة كاللهب التي تركت ندوبا لا تمُحَ وبقدر ماسبّبته لي من ألم ذرعت

في مخيلتي، أريد أن أنسى وجهه وهو يعد أرغفة الخبز وعدد البيضات وكمية الطعام التي لدينا في الثلاجة حتى إذا ما نقصت يحاسبني عليها وهو الرجل الغني صاحب الأملاك، أريد أن أنسى جفاف مشاعره حتى إني نسيت معني الرومانسية وكلمات الغزل بين الأزواج، أتدرين لقد كدت أنسى اسمي؛ لأنه لا يناديني به فقد استبدله بالأوامر هاتِي وافعلي، هل يبرر ذلك أنه كان زواجا تقليديا؟

صحيح صدمتني الاختلافات بيني وبينه بعد أسبوع من الزواج ،ولكن لقلة خبرتي كنت أعتقد أنه سيتغير، ولكن هيهات فقد صار عبوسا غيورا جعلنا نعرف معنى الحاجة ونتجرع طعم الحرمان .

أنجبت ولدا وبنتا وكلما تقدم به العمر كان يزداد غلظة حتى إنه منعني من زيارة أهلي إلى أن اتصلوا بي يوما وأخبروني أن والدتي مريضة وتريد أن تراني، ولكنه رفض وفي الصباح أبلغوني أنها ماتت، لم أنسَ له هذا الموقف أبدا، فرغ البيت من حولنا بعد زواج أولادي بقيت أنا وهو، كتمت كراهيتي له بداخلي؛ فقد كانت به كل الصفات التي لم أكن أتمنى أن تكون موجودة في شريك حياتي.

دمعة طفرت من عينها حين هاجمتها ذكرى ذلك اليوم حيث شب خلاف كبير بينهما فتطاول عليها وصفعها على وجهها وترك البيت وخرج بسيارته، غاب ساعتين ثم جاءها خبر انقلاب السيارة به، نقل إلى المستشفى ثم أخبرها الأطباء أنه لم يعد قادرا على الحركة وفقد القدرة على النطق وبعد

عدة أسابيع قضاها في المستشفى عاد إلى المنزل ليكمل العلاج.

كان الموقف غريبا ولم أفهم مشاعري حينها، في لحظة تغير الحال هذا الرجل بكل جبروته وظلمة ممددا على السرير كخرقة بالية لم يعد يتحرك في جسده سوى عينين قاتمتين تدوران في محجريهما، انتابتني مشاعر غريبة مرعبة مزيج من التشفي والرغبة في الانتقام، كنت أتولى رعايته بمفردي بعد أن عادت ابنتي إلى بيتها.

ارتعشت شفتاها وازدادت ضربات قلبها وهي تقول:

-كنت كل يوم لا أدري بنفسي إلا وأنا أحمل الحذاء وأهوي به على جسد زوجي المشلول وأوسعه ضربا وهو يئن ولا يستطيع الصراخ وينظر إليَّ بعينين فزعتين تملؤهما الدموع ولا أتوقف حتى تخور قواي تماما ويسقط الحذاء من يدي وأرتمي على الأرض .

ارتفع صوتها وهزت رأسها بعنف وخبأت وجهها بكفيها وقالت بنبرات متألمة:

-آه، لقد تعبت أريد أن أجد حلا، أن أتخلص من هذه المشاعر الحيوانية التي تملؤني، أريد أن أستعيد إنسانيتي مرة ثانية.

كتبت الطبيبة في الدفتر الذي تحمله «نشوة الانتقام.»

في طريق عودتها بعد انتهاء الجلسة ظل يتردد في رأسها صوت الطبيبة وهي تُملي عليها بعض التعليمات. استيقظت اليوم التالي وهي تصارع رغبتها، ظلت تتنقل داخل غرف الشقة تعيد تنظيفها وترتيبها حتى تشغل

نفسها بعيدا عن غرفة الزوج كما أوصتها الطبيبة ثم حاولت أن تقضي وقتا أكبر في إعداد الطعام وحين ذهبت إليه لتطعمه تعمدت أن تنتهي بسرعة وهي في صراع مرير مع رغبتها المقيتة التي باتت كجرعة أفيون حان وقت تعاطيها لها فبدأ جسدها في الارتعاش وازداد لهيبه وفقدت كل إرادة لها في المقاومة، حملت الحذاء ورفعته لأعلى وهوت به على ذلك الجسد المسجّ على الفراش أمامها وعندما همت برفعه مرة أخرى فإذا بصرخة تأتي من خلفها فتجمد جسدها وذراعها مرفوعة بالحذاء أعلى رأسها، فقد كانت ابنتها وقد أتت لزيارتها فجأة تقف مصدومة على باب الغرفة من هول المشهد.

السيد المدير

كان شعور الضجر يتملكه منذ الصباح حتى وصل إلى مقر عمله، ورغم حالة النشاط المشوبة بالتوتر التي رأى عليها الموظفين وهم في انتظار المدير الجديد للشركة إلا أنه لم يتخلص من ذلك الشعور الذي استحوذ عليه ،وظل مكانه وهو يشعر وكأن الوقت يسير على بساط من الفقاعات .

-أتجلس هنا بينما الجميع ذهبوا لاستقبال المدير الجديد؟

قال زميله مستنكرا ليحثه على ترك مكتبه ويكون معهم في استقباله. محسن في بداية الأربعينات وإن كانت قسمات وجهه المتغضنة توحي بأكبر من هذا العمر، ممتلئ الجسم قليلا، يرتدي ملابس (بسيطة) تعبر عن حالته المادية المتوسطة في اللحظة التي دخل عليه زميله، كان يجلس خلف مكتبه يضع يده على خده تتصارع الهموم داخل رأسه وهو يفكر كيف سيدبر مصاريف الجامعة الخاصة التي يريد ابنه الالتحاق بها هذا العام .

نهض محسن على مضض لكي ينضم إلى باقي الموظفين وليكون في استقبال هذا المدير الجديد، التحق بطابور الموظفين الذي ملأ الغرفة وحجب عنه رؤية المكتب القابع في نهايتها، كان من يأتي دوره في الصف يتقدم ويمد يده لمصافحة المدير الواقف خلف مكتبه ويعرفه بنفسه ويتراجع ليفسح المكان لمن بعده وهكذا حتى وصل الدور إلى محسن الذي وقف أمام المكتب وهم بمد يده ليصافحه ورفع عينيه ليراه، وما إن وقعت عيناه على وجهه

حتى تجمدت يده الممدودة في الفراغ قبل أن تصله وتحجرت الكلمات على لسانه وكأن لسانه قد انتفخ فملأ فمه فانعقد، وشعر كأن جدران الغرفة تدور، وغشيت طبقة من الضباب الأشياء من حوله، مرت دقيقة وهو يقف فاغرا فاه غير مصدق لما يراه ولا ينطق حتى لكزه زميله الذي بجواره.

-ازيك يا محسن، ولا زماااان .

شعر محسن وكأن الزمن توقف في هذه اللحظة، ولكنه حاول أن يروض فيض التوتر الذي اجتاح جسده فقال بعد عناء وبكلمات مرتعشة:

-أهل... أهلا دلال هانم .

-دكتورة دلال من فضلك .

قالت بحزم وهي تمد يدها لتصافحه؛ فلم يكن المدير الجديد سوى دلال زميلته السابقة في الكلية. بعد أن تعرفت دلال على الجميع خرجوا جميعا وتبعهم محسن وقبل أن يختفي من أمامها نادته:

-أستاذ محسن، انتظر من فضلك فأنا أريدك في أمر مهم .

استدار عائدا وأشارت له بالجلوس. بدت دلال أنيقة جدا بقوامها الممشوق خلف التايور الأزرق الذي ترتديه، وشعرها الداكن المنسدل على كتفيها وعينيها الشهديتين. ظلت لبرهة صامتة توجه إليه نظراتها القوية وتتفحصه من أعلى إلى أسفل وهي لا تخفي نظرة زهو وانتصار ارتسمت شفافة على مرآة عينيها. همس لها وجدانها فجأة بذكريات توالت أمام عينيها، تذكرت صراعه الدائم معها وغيرته الدائمة من تفوقها ومحاولاته

اللجوجة لكي يشعرها أنها فتاة ضعيفة لا تستطيع أن تنافس الرجال وأن دورها في المنزل فقط. بينما جلس محسن واضعا يديه بين ساقيه ممسكا بهما حتى لا يفضحه ارتجاجهما وشعر كأن هواء الغرفة يتسرب حتى إنه بدأ يتنفس بصعوبة، شعرت دلال بتوتره فقالت:

-كيف حال "ريما" زوجتك؟ رد باقتضاب: بخير الحمد لله.

-أردت أن أحدثك على انفراد حتى تتأكد بأنني قد نسيت ما حدث في الماضي، وأردت أن نبدأ صفحة جديدة ونتعاون لصالح العمل.

-إن شاء الله .

رد بصوت واهن ثم استأذن لينصرف. خرج محسن من عندها وهو يجر رجليه جرا وقد فغر فاه وتدلى فكّه. جلس على مكتبه غير مصدق يتعجب من أفعال الزمن ويسأل نفسه: "أهذه دلال حقا؟."

عادت به الذكريات إلى كلية التجارة، حيث كان ودلال وريما زوجته أصدقاء إلا أن دلال كانت متفوقة جدا، وكانت تنافسه في احتلال الترتيب المتقدم على الدفعة وفي كل الأنشطة داخل الكلية، ولكنه لم يكن يطيق أن تنافسه امرأة فهو مؤمن أنهن لا دور لهن في الحياة سوى المكوث في المنزل لتربية الأبناء وانتظار الزوج عندما يعود من عمله وتلبية طلباته ،بعد التخرج تزوج محسن من ريما التي أصر على أن تبق في المنزل ولاتعمل. قطع حبل ذكرياته صوت هاتفه وكانت زوجته ريما فذم شفتيه حنقا وأغلق الهاتف ولم يرد .

سائق التاكسي

في منتصف يوم من أيام أغسطس الذي أصرت فيه الشمس أن تصافح البشر بحرارة، أتى التاكسي الذي طلبته من أحد التطبيقات على الموبايل في موعده تماما، ألقيت على السائق نظرة متفحصة ثم جلست في المقعد الخلفي لعلني أجد في ملامحه بعض الطمأنينة لتزيح القلق الذي يداهمني حين أستقل التاكسي بمفردي ويكون المشوار طويلا.

يوحي مظهره بأنه في بداية الخمسينات من عمره لديه لحية كثيفة متوسطة الطول، منحني بعض الطمأنينة بمظهره الورع هذا وعلامة الصلاة تحتل مساحة كبيرة من جبهته، إلى هنا والأمور تسير جيدا، وتبدد قلقي تماما عندما أدار مؤشر الراديو ليهدي إلى مسامعي صوت أحد الشيوخ يرتل القرآن الكريم بصوت رخيم، حملني على أجنحة في فضاء رحب تملؤه السكينة والخشوع فهدأت نفسي واستكانت روحي، والسائق يردد الآيات خلف الشيخ في تضرع ربما ليحفظها أو للحفاظ عليها من أن تسقط من ذاكرته. مرت دقائق ونحن على هذا الحال حتى كدت أغفو في سلام وأترك لهذا السائق التقي زمام الطريق تماما.

مر بعض الوقت ثم لاحظت نظراته المرتبكة في المرآة كمن يراقبني في الخلف وقد حلت ملامح عبوس على محياه وطارت الوداعة من عينيه وإذا به يلف رأسه وينظر إليَّ في الخلف وقد قطب جبينه وتكرمشت جبهته

ويوجه إليَّ سؤال مباغت:

- مدام كم تكلفة الرحلة كما ظهرت لك على التطبيق؟انتبهت وأخبرته بالمبلغ وإذا به يقول:

-بعد إذنك سوف ألغي الرحلة من التطبيق ثم أقلك إلى وجهتك بنفس التكلفة، ولكن بعيدا عن الشركة.

غلت الدماء في عروقي وأنا أرفض طلبه وأصر على أن يسير بحسب تطبيق الشركة.

قبل نهاية العالم

ظل مكانه غير قادر على الحركة وقواه خائرة تماما فأغمض عينيه واستسلم للنوم وراح في سبات عميق، استفاق من نومه فزعا على أصوات وهمهمات عالية بقربه، فتح عينيه وانتصب مفزوعا عندما رأى دائرة من النساء تلتفّ حوله، كانت أجسادهن ضخمة ذات لون أسمر داكن عرايا إلا من وشاح صغير أسود يغطي منطقة البطن لأسفل، تحمل كل منهن رمحا ضخما، رحُن يحدقن به ثم يتبادلن النظرات فيما بينهن ويتحدثن بلغة غريبة لم يفهمها.

أميمة رشوان

سنابل للكتاب

الخان